obeikandl.com

البهجة تحزم حقائبها

الكتاب : البهجة تحزم حقائبها
المؤلف : مكاوي سعيد
تصميم الغلاف : طارق فوزى
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع : ٢-٢٨-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨
الترقيم الدولي : ١٣٨٤٢ /٢٠١٣
الطبعه الاولي :٢٠١٣

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

البهجة تحزم حقائبها

قصص قصيرة

مكاوي سعيد

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير

أنا وأنتِ فقط

وما حولنا محض هراء

مكاوي

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

ثلاثة أشكال لأبي

obeikandl.com

أخطأت التوقيت، كان يجب أن أتسلل أثناء قيلولته، أو بعدها بقليل حين يحضر نفسه لصلاة العصر أو يؤديها، شغلتني أمي بإطعام أزواج الحمام بـ "العشة"، وشغلت بمراقبتها وفرز النوع البلدي من الجبلي من الزاجل الذي يتهادى كالطاووس إلى ركنه، وحصرت من منهن ترقد على بيضها أو تحتضن "زغلوليها"، وراقبت لوهلة الذكور الذين هاجتهم الرغبة فبدأوا فى نقر رؤوس "وليفاتهم" حتى يستكن ويرقدن بوداعة، فيقضون منهن أوطارهم، حتى انساب الزمن من يدي، فعدوت تجاه أسفل سريري لإخراج حذائي، لمحني، ناداني بصوت لم يزل راقدًا فى أحابيل النوم، صوت عريض أجش، خرجت من غرفتي بسرعة ورباط الحذاء يتدلى على جانبيه، قال باستياء: هتنزل تلعب مع الأولاد وتكسروا قزاز العربيات والمحلات وتصحوا الناس فى بيوتهم ويتنعل ملة أبوكم واللي مخليفنكم.. وتجيبولنا النعيلة لحد حجرنا؟ لم أنطق لكن أمي الجالسة على الكنبة قبالته قالت له بحدة: النهاردة الجمعة يالطيف، شوف إنت عايز إيه من الواد، وخلصه بسرعة علشان يلعب مع أصحابه ويفك نفسه. نظر إليها قالبًا شفتيه مستهزئًا بكلامها وقال موجهًا كلامه إليّ: إجري هات كراستك والقلم الجاف. هرولت لأحضرهما دون أن أفكر حتى فى أسباب طلبه هذا، وعند عودتي وجدته يرتشف من كوب "الشاي بالحليب" بتلذذ، وهناك بقايا من الشاي عالقة بشاربه الضخم، لم أجرؤ على الإشارة له بإزالتها، جذب مني الكراسة بغلظة وفتحها عشوائيًا، ثم وصف خطي بنعكشة الفراخ كعادته وأنا خافض الرأس أتمنى أن تنتهي هذه الدقائق الثقيلة

دون أن يلطشني على خدي أو يدفعني بيده فأقع على الحصيرة، لكني في الوقت ذاته كنت على يقين بأنه لن يعيرني بأني بليد وفاشل في التعليم لأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومتابعته لكراساتي لا تتعدى النظر إلى النجوم الحمراء التي يضعها المدرسون على الواجب المدرسي، وكنت أضيف أحيانًا بالقلم الأحمر نجمة أو نجمتين حتى أرضيه، هذه المرة لم يهتم بفحص الكراسة لكنه فتحها على مصراعيها وقطع ورقة مزدوجة من وسطها، طبقها بعناية ووضع الكراسة أسفلها كمسند لها، ثم ناولني كوب الشاي الفارغ لأدخله إلى المطبخ، كنت أتمنى أن أبقى في المطبخ إلى الأبد، أو ينفجر في جسدي وابور الجاز والبستلة المليئة بمياه الغلية التي تبقلل فوقه، سيمليني خطابًا إلى أهلنا بالصعيد، ويظل يوبخني على كل كلمة أكتبها ويقاوح مصرًا أني أخطات، أنا الذي في الرابعة الابتدائية ومدرس اللغة العربية يشيد بنبوغي، يصر أبي الذي لم يدخل حتى الكُتّاب أصلاً على فشلي في القراءة والكتابة! صرخته القوية جذبتني من المطبخ إلى موقعه في لمح البصر، كأنها آلة شفط عملاقة مركز بؤرتها في حنجرته، ناولني القلم الجاف الذي كنت قد فرحت جدًا أنهم سمحوا لنا باستخدامه في هذا العام الدراسي، وهذا الأب القاسي جعلني أكرهه جدًا وأراه كثيرًا في أسوأ كوابيسي، كان يراقبني وأنا أكتب به، ثم يسألني عن الكلمة التي أنقلها طبق الأصل من الكتاب، وعندما أذكر اسم الكلمة كان يقرب الكتاب من عينه ويتأملها ثم كالجواهرجي المدّعي يفحص الكلمة التي كتبتها وينهرني لأني كتبتها خطأ ويشخط فيّ إذا اعترضت، ثم تأتي مرحلة

التعذيب وهو يصر على وضع القلم بيده بين سبابتي وإبهامى ويضم بإصبعيه الغليظتين إصبعيّ ويجري بهما على الورقة محاولاً تقليد الكلمة، وإذا ما انحرف القلم بيدي - وكثيرًا ما كان يحدث هذا - كان يضغط على إصبعيّ حتى أصرخ من الألم، وتظل آثار ضغطاته تلازمني لأيام. أمسكت بالقلم وأنا أقف فى مواجهته تفصلني عنه المنضدة الدائرية الصغيرة، غير أنه أومأ برأسه لأقف بجواره وأعتدل قليلاً حتى يتمكن من إملائي، كانت أمى قد تربعت على الكنبة وأزاحت طرحتها البيضاء فبدا شعرها الأسود الغطيس الطويل جميلاً، وأمسكت بمشطها العريض تسوي خصلاته، بينما قال لي بصوت جهير وهو يشير إلى قمة الصفحة: حسّن خطك واكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. بدأت رحلة العذاب المعتادة وكان قد جعلني فى مدى العامين السابقين - عندما تأكد من قدرتي على الكتابة - أكتب له أكثر من عشرة خطابات حتى بتّ أعتقد أنه أدخلى المدرسة من أجل كتابة رسائله فقط، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا بعض الشيء، كان الخطاب موجهًا إلى خارج القُطر، حيث يعمل خالي ويقيم فى دولة الكويت منذ فترة ليست بعيدة، وكان أبي عصبيًّا فوق عادته لم يركز في كل كلمة، لكن عندما كنت أنتهي من كتابة فقرة كاملة كان يجعلني أقرأها له ثم ينظر إليها مكتوبة ويأمرني أن أكمل ما يمليه، بعد السلام والديباجة دخل إلى الموضوع مباشرة، وطلب مني أن أكتب له أن الدائنين الذين اقترض منهم أبي من أجل توفير تذكرة سفره ومصروفات إقامته، أصبحوا يطاردونه بإلحاح من أجل نقودهم.. وعاتبه لأنه قال إنه سوف يرسل

المال بعد أن يقبض أول راتب، وها قد مرت أربعة أشهر دون أن يرسل شيئًا، وبينما كان أبي يفكر فى فقرات أخرى، كنت أختلس النظر إلى والدتي حيث زاد معدل صعود وهبوط مشطها الأبنوسي وزادت كمية الشعر المتساقط حتى حولت لون المشط من اللون البني إلى اللون الأسود، كانت تملية والدي مليئة بالغمز واللمز، وكان وجهها ممتقعًا وتكتم غيظها بصعوبة، فأنا وهي فقط نعلم أن والدي يكذب، فلا دائنين ولا يحزنون، والمبلغ الذي سلّفه لخالي كان يدخره من أجل شراء محل أكبر من محل البقالة الذي يمتلكه، ويساعده فى إدارته عامل أخرس، وكنت أعرف أن أمي تحب خالي مثلما تحبني، فهو أخوها الصغير والوحيد في العائلة الحاصل على دبلوم تجارة دون سنة رسوب واحدة، وكنت أعجب من إصرارها على الجلوس كل هذه الفترة تسمع ما يكدرها، لكني الآن أدركت حتمية وجودها حتى لا يتمادى والدي ويجبرني على كتابة سباب فاحش لخالي. انتهى الخطاب أخيرًا وقرأته كله دفعة واحدة، وبدا راضيًا عن الكتابة ثم طلب مني كتابة اسمه الثلاثي.. لطيف محمد علي، أسهل ما فى الخطاب تحول بقدرة قادر إلى أسوأ كوابيسي.. قرّب الخطاب من عينيه لمرة أخيرة وقام بنصفه العلوي واحمرت عيناه من الغضب، ارتعش جسدي كله وهو يشير تجاه التوقيع باسمه ويصرخ ويتفتف في وجهي: بتكتب اسمي غلط!.. كان الاسم الثلاثي صحيحًا وفق ما تعلمته ووفق ما أرصعه على أوراق اختباراتي وامتحاناتي، لكنني كنت لا أجرؤ على الجدال فبدأت أبكي وأكتم صوتي بقدر الإمكان ويهتز جسدي كله، وتركت أمي ما تفعله

لحظة وشخطت فيه بضجر: لطيف.. بالراحة إنت خلعت قلب الواد. لم تكن قادرة على الدفاع عما كتبته فقد كانت أمية مثله، لم يرد عليها وبجبروت نزع من يدي الورقة وتحت اسمه الذي اعترض عليه كتب اسمه كما اعتاد كتابته فى أذون استلام البضاعة وعلى فواتيرها، لطيف: كتبها بدون حرف الياء ومحمد: كتبها بدون حرف الميم الثانية، وبفجر ألصق الورقة بوجهى وهو يقول بتحدٍ: كده يا بقرة أنا مش عارف بيعلموكوا إيه فى المدارس! ثم شطب الاسم الصحيح الذي كتبته ودفس الخطاب فى المظروف المعد سابقًا، والذي لحسن حظي جعل أحد الزبائن المتعلمين يكتب على صدره عنوان المرسل إليه حتى لا أخطئ فى كتابته ولا يذهب إلى وجهته، وعلى ظهره عنوان بيتنا واسم الراسل الذي هو والدي بحرف الياء الذي يصر والدي على عدم وجودها في حروف اسمه، طبعًا هو لن يستطيع مقاوحة الأفندي الذي كتب العنوان لذلك سكت، أو ربما هو متأكد تمامًا أن الأفندي لم يخطئ لذا لم يراجع ما كتبه من بابه، ثم وكأنه جراح ماهر أنقذ مريضه وبدأ فى حياكة جرحه بمهارة، أخرج لسانه الذى تحول سقفه إلى ما يشبه سقف بيت معرض للانهيار، كان اللون الوردي للسان قد تحول إلى أحمر قاتم، ملأت شقوقه صبغة صفراء، من المضغة والشاي بالحليب الذي يدمنه، مسح بلسانه مطوية المظروف، ثم ضغط عليها بيده ولم يكتفِ بذلك، بل تحسس الرسالة مرة أخرى بداخل المظروف، ثم وضعه على المنضدة على وجهه، وظل يدق بقبضة يده مثلث المظروف الذي به المادة اللاصقة حتى يثبت اللصق،

كنت مندهشًا من هذا الاهتمام المبالغ به بهذا المظروف كأن به حوالة مالية أو نقود، وقبل أن أنصرف من أمامه ناولني المظروف، ثم أخرج حافظته الجلدية الضخمة المهترئ جلدها من كل الزوايا، والمثبتة بسلسلة طويلة في نهايتها حلقة حديدية مزروعة في الصديري، ومن أحد جيوبها بدأ فى إخراج مجموعة من الكروت الشخصية الكثيرة التي لا أعرف لم يحملها، ثم موس"ناسيت" وورق بفرة وطابعين، مسح على ظهرهما بلسانه وألصقهما ودق عليهما بقبضته أيضًا، اعتقدت أن مهمتي قد انتهت، لكني كنت واهمًا جدًا، فقد طلب مني أن أحضر الخيشة وهو يخرج ورقة المضغة ويضعها أمامه، ثم أعاد المحفظة إلى مكانها، ومن جيب صغير في الصديري أخرج العلبة الدائرية التي بها ملح النطرون ووضعها بجوار ورقة المضغة، ثم وجدني مازلت واقفًا فحدق في وجهي بشدة فاستدرت بسرعة تجاه الحمام، ولمحت أمي تكور شعرها الذي تساقط وتضع بداخله أظافرها التى قصقصتها وتهم بالنزول عن الكنبة، بداخل الحمام كان هناك مستطيل من الخيش الرديء، مخصص لبصاق أبي وهو يمضغ أوارق دخانه بعد أن يضع عليها قطعة ملح نطرون فى حجم حبة السمسم، ثم يركن الدخان فى إحدى شدقيه ساعة أو ساعتين، وكلما امتلأ فمه باللعاب كان يبصقه فى تلك الخيشة بمعدل مرة كل خمس دقائق، وكانت أمي تنظف هذه القطعة ليلاً بفُرش البلاط والفنيك، لكني كنت أقرف جدًا من المرور بحوارها فما بالك بحملها، وكانت أمي تعرف ذلك لذا لحقتني حتى الحمام، وابتسمت وهي تربت ظهري لما وجدتني واقفًا أمام

الخيشة دون حراك، أبعدتني قليلاً عنها وتفرغت أولاً لقذف بقايا الشعر والأظافر داخل المرحاض، ثم دلقت عليهما بستلة ماء كاملة حتى اطمأنت تمامًا أنهما ذهبا إلى غير رجعة، كان بيتنا جنوبيًا قحًا، ارتحل أبي وأمي بمجرد زواجهما إلى القاهرة وأقاما بها، لكنهما حملا معهما كل خزعبلات الجنوب فى قفف تجاور قفف المنين والعيش الشمسي وزلع المش، ممنوع قص الأظافر أو الحلاقة بعد المغرب، البقايا التي تتساقط منك أو تنزعها أنت بإرادتك كقلامة الظفر والشعر يجب ألا تقع فى يد عدو حتى لا يعمل لك سحرًا يؤذيك، لا تترك طرفي المقص متباعدين صباحًا أو ليلاً فهذه علامة شؤم قد يتسبب فى خراب البيت، ناهيك عن الضحك بصوت عالٍ دون أن تستعيذ بالله من الشيطان إلى آخره. اطمأنت أمي إلى أن لا أحد سينالها بسحره واستدارت نحوي وهمست في أذني: معلش أبوك عصبي النهاردة اسمع كلامه ومتعارضوش. ثم مدت يدها بمحبة إلى قطعة الخيش التي كنت أحس برغم تنظيفها اليومي أن البصاق مازال ملتصقًا بها، خرجت بها إليه وهي تمسكها من طرفها، كنت متوجسًا أن يلومها لأنها حملتها بدلاً مني لكن يبدو أن الكيف غلبه وما صدق أن القطعة اتفردت على الأرض، حتى بدأ في البصق بتصويب دقيق، كنت أخشى ألا تستطيع الشمس الصمود ويهبط المغرب فهذا معناه ألا ألعب، لذا استأذنته وأنا مطرق الرأس في الخروج، ذكر تحذيره المعتاد بعدم تلويث الملابس ولا التشابك بالأيدي مع الأولاد، ثم ناولني المظروف وهو يقول: عارف صندوق البوستة اللي في الشارع اللي ورانا؟ أومأت برأسي، أشار لي

بيده لأقترب ثم أكمل كلامه: حتلاقي صندوقين واحد أحمر مرسوم عليه طيارة وواحد أزرق مرسوم عليه قطر، تحطه فى الصندوق اللي مرسوم عليه طيارة.. فاهم عشان لو مارحش ورجعلنا تاني حاطردك من البيت وأعيشك فى الدكان مع الفيران. أمي التي كانت في تلك اللحظة تضع له كنكة القهوة على السبرتاية اعترضت قائلة: الواد صغير يا لطيف مش حيقدر يطول الصندوق. أسكتها مستهجنًا: وإنتي كونتي شوفتي الصندوق فين!.. أصغر منه وبيطولوه وبعدين لو عجز يقول لأي حد معدي حيرميله الجواب. حسمًا للأمر اتجهت برأسي ناحية أمي وقلت بثقة: حأعرف أطوله يا أمي. لكنها كانت عنيدة أصرت وهي ترتفع بتون الصوت درجة: إنت نازل يا لطيف بعد شوية إرميه بنفسك. لكنّ أبي الذي يقلبه العند إلى حجر أصم أشار إليّ بالنزول وهو يقول: انزل يا واد وارمي الجواب زي ما قلت لك وبعد متخلص لعب عدي عليّ على القهوة.

قدمي كانت تطير فوق الدرج الأسمنتي والمظروف تحت إبطي، وعندما وصلت إلى باب البيت الخارجي لم أجده في مكانه، صعدت الدرجات مرة أخرى وقلبي يرتجف، لكن لحسن حظي وجدته على بسطة الدور الثاني، يا ويلتي لو كنت أسقطته في الشارع وعثر عليه والدي، أكيد كان سيطلّق أمي ويشردني ويرميني في الملاجئ، ومن شدة خوفي من ضياع المظروف أهملت أصدقائي وذهبت مباشرة إلى مقر الصندوقين، كانا فعلاً اثنين أحدهما أحمر والآخر أزرق، لكن الألوان اختطلت على أبي فالأحمر هو الذي مكتوب عليه بريد عادي ومرسوم عليه قطار،

والصندوق الأزرق مكتوب عليه بريد جوي ومرسوم على واجهته طائرة، وكان الصندوقان فعلاً عاليين عني، ولن أطولهما حتى لو شببت على قدميّ، لكن يبدو أن أحدًا انتبه إلى هذه المشكلة، ووضع حجرًا ضخمًا وعاليًا بين الصندوقين، اعتليته ومددت يدي الخالية إلى فتحة أحدهما فوصلت أناملي إلى الفتحة بالضبط كأن الحجر مصمم على مقاسي، لم تلفت نظري الطائرة التي ترتفع مقدمتها تجاه السماء، لكنّ الخطين الطوليين اللذين تتقاطع معهما خطوط متوازية على هيئة قضبان السكك الحديدية، هما ما لفتا نظري بشدة، ثم القطار بعجلاته ونوافذه المرسومة بإتقان أخذا بتلابيبي، وظللت أتأملهم بإعجاب شديد، حتى تذكرت الخطاب ودفعت به في الفتحة التي راقني رسمها، وكانت صندوق البريد العادي! ثم تنبهت إلى بلوتي فجلست على قرافيصي أمام الصندوقين أبكي بجنون، مر عابر سبيل وعندما استمع إلى مشكلتي هوّن عليّ قائلاً: مافيش مشكلة يابني.. هما كده كده حيفرزوا كل الجوابات في مركز البوستة ويحطوا جوابك في طيارة الكويت، ثم غادرني دون أن يطمئنني كلامه ولو بنسبة صغيرة، بعكس كنّاس الشارع الذي اهتم بما أقوله واستمع باهتمام، ثم طلب مني أن أحضر في الغد في تمام الواحدة ظهرًا وأنتظر أمام الصندوقين، وعندما يأتي رجل البريد ليأخذ بريده أخبره بمشكلتي وهو سيحلها بسهولة، ولكي يطمئنني أكثر أكد لي أنه سيتواجد في نفس الموعد ليساعدني على إخبار رجل البريد بما أريده بالضبط، هون عليّ هذا الرجل المشكلة تمامًا، ولم تكن هناك عقبة بخلاف أن موعد خروجي من المدرسة في

الواحدة أيضًا، والمدرسة تبعد مسافة كبيرة عن الصندوقين مما قد يؤخرني عن مقابلة رجل البريد، ولم أجد حلاً غير ادعاء إصابتي بمغص شديد والاستئذان في منتصف الحصة الأخيرة من اليوم الدراسي، وقررت أيضًا أن أكفي على الخبر ماجوراً ولا أخبر أمي، فهي ستحتفظ بالسر يومًا أو يومين ثم ستخبره فيجعل أيامي سوداء، ولعبت مع أصدقائي دون روح وتشطفت جيدًا في ميضة الجامع خوفًا من لفت نظر أبي إلى خطأ بشكلي أو ملابسي فيوبخني، وأجد نفسي وسط البكاء أعترف له بكل شيء.

أبي له ثلاثة أشكال مختلفة على الأقل، بالكلسون والفانلة والصديري في البيت، وبالجلباب الملطخ بالزيوت وبقع الكيروسين وبقايا الجبن داخل المحل، وبالجلباب النظيف المصنوع من أجود أنواع القماش في خروجاته، أو في جلسته على المقهى متصدرًا الواجهة، وجدته هناك بالضبط عملاقًا جالسًا بين رفاقه، وصوت هادر يخرجه إذا ما لعب دورًا جيدًا في لعبة الدومينو، وشخطة قوية للمنافسين إذا ما هزموه، كان في تلك اللحظة منتشيًا بفوزه، وحريصًا على إكمال اللعب للفوز بأدوار أخرى، ناولته كيس البلح الأمهات والجوافة وهو يسألني: رميته؟ أجبته بسرعة: أيوة. اكتفى بهذا الرد وانهمك في رص قطع الدومينو وهو يكمل دونما لفتة تجاهي: تروح على طول وتخلي أمك تجهز العشا نص ساعة وحأكون في البيت.

وصلت هناك قبيل الواحدة كما خططت، لم يكن الكنّاس موجودًا كما وعدني، وقفت بالقرب من الصندوق أرقب الطريق من الجهتين، وأذني متأهبة لسماع صوت المكنسة المصنوعة من سعف النخيل وهي تفرش أرضية الشارع وتزيل أوساخه، وعيناي تمسحان المدى خوفًا من مرور والدي مصادفة، حتى اقتحم أذنيّ صوت هادر صادر من "تروسيكل" يبدو أن محركه مضطرب، توقف "التروسيكل" أمامي مباشرة ونزل منه راكبه واتجه إلى الصندوق الإضافي الملحق به وسحب منه جرابًا طويلاً من قماش الخيام الثقيل، كان راكب "التروسيكل" هو رجل البريد ذاته، وضع فوهة الجراب، التي هي عبارة عن زاوية حديدية مربعة على مقاس الصندوق تماما أسفل الصندوق، لمسته من البنطلون برفق، لكنه أبعدني بغلظة وأدار الزاوية في اتجاه معين، فانهال ما في الصندوق داخل الجراب، وضع الجراب في التروسيكل وأحضر جرابًا آخر، لكنني في هذه المرة وقفت أمامه بإصرار فقد كان في طريقه إلى الصندوق الأحمر الذي وضعت فيه خطابي بالخطأ، لفت نظره إصراري فسكن يسمعني، أخبرته بمشكلتي فضحك باستهانة وقال لي بهدوء: ولا يهمك فيه موظفين معينين من الحكومة مخصوص علشان يفرزوا الجوابات متخافش جوابك حيروح الكويت ومش حيضيع. أشرت له على الصندوق الأحمر وأنا أقول: جوابي جوة الصندوق ده طلعهولي وحطه في الصندوق التاني. سحبني من يدي تجاه الصندوق ووضع الجراب أسفله وأداره كما فعل في الصندوق الأول ثم أخرجه وأراه لي، كان الجراب مغلقًا تمامًا ولم أفهم قصده إلى

أن قال: شوفت كده اتبرشم خالص وأنا نفسي ما أقدرش أطلع منه جواب واحد، ثم ألقى بالجراب الممتلئ في صندوق "التروسيكل" بإهمال وهمّ بإدارة المحرك، لكني لاحقته بقولي: وهما ليه عاملين شنطتين مدام بيفرزوا الجوابات في المركز؟ ابتسم ابتسامة كبيرة وداعب شعري وهو يدير محركه ويكاد يقسم لي بأن خطابي لن يضيع.

ركبني الهم والغم لأيام وكنت أتلكك يوميًا وأمر على محل أبي عند عودتي من المدرسة، وأرقبه من بعيد، إن وجدته في حالته العادية أقبلت عليه وسألته إن كان يرغب في إرسال شيء إلى البيت، وإن وجدته متكدرًا، أظل منتظرًا عودته في ساعة الغداء متخوفًا من أن تكون المصيبة قد حلت وعاد الخطاب إلى عنوان المرسل، الذي هو أبي.

لكن لم يعد الخطاب مطلقًا إلينا، الذي عاد بعد شهر تقريبًا هو خالي، هبط علينا ليلاً بحقائبه وهداياه لأبي وأمي وبحقيبة مدرسية وقميص وبنطلون لي، فرحت كثيرًا وقاسمني غرفتي كما فعل لمدة قصيرة قبل سفره إلى الكويت، كنت أسأله عن موعد عودته إلى الكويت ولكنه كان يجيبني بإجابات غامضة، الغريب في الأمر أن أبي وأمي لم يسألاه في وجودي عن الخطاب، وأنا لم أجرؤ على سؤاله مطلقًا، وحين كان غائبًا مرة عن البيت وصل إلى سمعي بالصدفة أنه لن يعود إلى الكويت مرة ثانية، كان أبي يقول لأمي ضاحكًا ومتشفيًا: ما هو صحيح نحس يموت كفيله بعد أربع شهور من سفره، دا لسه ماكملش الست

شهور اللي تحت الاختبار! ردت أمي بغيظ: الموت علينا حق يالطيف وبعدين هو رجع لوحده؟ مارجعوا معاه التلاتة اللي كانوا مسافرين وياه. ثم عقبت: إوعى تقل عقلك يا لطيف وتطلب الفلوس.. لو كنت محتاج حاجة خد كرداني وتعباني والحلق.. مش عاوزة الواد يتقهر أكتر ويروح مني، جلجل صوت أبي ضاحكًا وهو يقول: دهب إيه يا أم دهب.. بقولك إيه حضريلي القرشين اللي كنت باحوشهم وياكي عشان أشتري الأوضة اللي في البدروم وأعملها مخزن للمحل.. عشان ندبر له تذكرة طيران للعراق يمكن نصيبه في الشغل يكون هناك.. (فترة صمت طويلة).. ثم هتفت أمي : بتتكلم جد يا لطيف؟ تلون صوت الأب المتجهم، حتى بدا أقرب إلى هديل الحمام وهو يقول: وأنا رجعت في كلامي أبدًا يا ولية؟. ثم انطفأ النور فجأة...

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

أحيانًا تعاودنا الدهشة

obeikandl.com

قبيل منتصف الليل وفي المطعم العريق ذاته المعروف بنظامه الديكتاتوري، موعد محدد دقيق للفتح والإغلاق.. وإجازة أسبوعية محددة وسنوية لا تتغير.. وجرسونات ومشرفون لا يتبادلون النكات مع الزبائن، فقط يبتسمون ابتسامة مبتسرة وينحنون وهم ينصرفون، وتحت ظل الموسيقى الكلاسيكية نفسها التي تنساب برتابة وفق اختيارات ونظم حددهما صاحب المكان، وأسفل الجدران ذاتها المعلق عليها لوحات تجريدية لم تتغير لسنوات في أطرها الخشبية الملصق عليها أسعار باهظة بالعملة الأجنبية، وعلى المناضد نفسها المتراصة على الجانبين بنظام قطارات النوم، يفصلها ممر طويل يفضي إلى البار والمطبخ والحمامات ومكتب الإدارة، كنت أجلس وسط أصدقائي على طاولتي الأثيرة الثالثة إلى اليسار، وجهي مقابل وجوه صحبتي وظهري تجاه الباب المنزلق الذي يصدر صوتًا دقيقًا يكسر رتابة موسيقى المكان عند دخول أحد الرواد، كنت أفضل تلك الجلسة حتى لا أنشغل كل فترة بوجوه الداخلين إلى المكان، كما أنني كنت أحب أن أخمن نوعية الزبائن بمجرد سماع صوت "تزييقة الباب"، بمجرد النظر إلى وجوه الأشخاص المتواجدين قبالتي على الجانبين ويمكنهم رؤية الداخلين من مواقعهم؛ كنت أحدس من القادم، إذا ما تبسمت وتفتحت أغلب العيون وتوحدت في نظرة تجاه الهدف، ودون أن ترتفع يد بالإشارة من منضدة ما، كنت أخمن أن الداخل امرأة جميلة جدًا أو فوج من الحسناوات الأجنبيات، وإذا ما ألقت الوجوه بنظرات عابرة وعاودت ما كانت تقوم به، كنت أعرف أن الداخل أحد رواد المكان أو أحد الغرباء

غير المميزين. هذه المرة صاحب صوت الباب المنزلق رد فعل غريب، كل الرؤوس المشرئبة في فضول، طأطأت نفسها بسرعة وأسرعت الأيدي بدس "الشوكات" والملاعق في الأطباق بصوت دال على انهماكها في الأكل، وانشغل البعض في ملء الكؤوس من الزجاجات والإمساك بقطع الثلج من داخل الدوارق بالكلابة المعدنية محدثًا رنينًا مألوفًا، حتى رفاق طاولتي انهمكوا في توزيع أقراص الطعمية والكبدة المشوية وباقي المزات - الموجودة أصلاً منذ فترة طويلة على المائدة - بعضهم على بعض، ولم يردوا على همستي المتسائلة عن ماهية الداخل، اضطررت لأن أدير رأسي قليلاً بعد أن غالبني الفضول، يا ويلتي كان القادم هو حسن، لكنه هذه المرة يبدو مختلفًا، رغم أنه بنفس البنطلون القصير والجورب الذي يكاد يصل إلى ركبتيه و"التي شيرتات" المميزة برسوماتها الطفولية التي يرتديها، وبنفس الكاميرا التي تتدلى من حزام على صدره، وبنفس عمره الذي لم يتجاوز العشرينات، لكنه في تلك اللحظة كان يمشي مشية متثاقلة وحزينة كأنه يسير في "مارش" عسكري، يحتضن علبة كرتونية ضخمة، وبلا ابتسامة فوق وجهه كالمعتاد، مجرد خط عريض أسفل أنفه، ولم يكن ينظر يمينًا أو يسارًا، بل يسير كالمنوم مغناطيسيًا تجاه عمق المحل، تجاوزنا فهمس صديقي "الحمد لله" فضحكنا، وسمعنا ضحكات مكبوتة تفلت من المناضد التي تجاورنا، ربما لنفس السبب.

حسن الذي هبط إلى منطقة وسط البلد منذ فترة قصيرة لا تتجاوز عامًا، عرف كل الأماكن التي نتجمع فيها وتعرف على أغلب المثقفين

الذين يرتادون المنطقة، ولم يجد صعوبة في ذلك فقد كان الابن الوحيد لأسرة مثقفة متميزة، عندما بلغ العشرين من عمره قرر أن يكون واحدًا من معالم وسط البلد، وبدأ في النزول بمفرده ومسلحًا بكاميرته يوثق ويسجل صورًا لكل من يلتقيهم، لا يهتم أساسًا بجلوسك في مكان مناسب أو غير مناسب، حليق الذقن ومهندمًا أم مكتئبًا تتوارى عن العيون، ستجد عدسة حسن مصوبة إليك تلتقط لك صورًا متتابعة وعليك أن تفهمه بهدوء أن يمسحها، وسيستجيب لك كمن يتفضل بذلك عليك، بالإضافة إلى أن طفولته وإعزازك لأهله تحميه من الاستئذان وتغفر له فرض نفسه على مائدتك يأكل مزتك ويشرب زجاجة مائك وفي الوقت نفسه يرفض أن تدعوه إلى شيء، وقد يغازل صديقتك ببراءة، أو يسخر من أجزائها القبيحة، أو بدانتها دون أن ينتبه، مجرد مرور حسن على طاولتك معناه أن سهرتك انتهت، فقد يغافلك ويصورك صورة غير لائقة، وقد ينشرها عبر الإنترنت بالتاريخ والتوقيت والمكان فلا تستطيع أن تتخابث مثلاً وتدّعي أنك كنت في مهمة بالخارج أو مريضًا، لأن العالم كله يعلم أين سهرت بالأمس ومع من، وقد يبتر أحاديثكم المهمة أو يسخّف دون قصد على شخص عزيز عليك أو بينك وبينه مصلحة، أصحاب المحلات وعمالها لا يجدون سبيلاً إلى وقفه خاصة وهو يفعل ذلك بمحبة شديدة لا تصل به إلى حد إغضاب الآخرين، وجعلهم يبعدونه بقوة عن محالهم.

الصخب الذي كان يدخل به الأماكن تحول الآن إلى صمت عجيب أخذه من يده وأجلسه على طاولة خالية دون أن نشعر، كان منظره

فريدًا وهو يجلس وحيدًا، كوعاه على صدر المنضدة وكفاه يحتضان خده، ثم كأن الزمن قد توقف لحظات وبعدها تحركت تروسه، عاد المكان إلى ما كان عليه، خرج الجرسونات من عمق المطبخ وفوق أياديهم صوانٍ ممتلئة بالأطباق والزجاجات والكئوس وتفرقوا في أرجاء المحل كافة، وتوزع العمال على المناضد يرفعون الأواني والأطباق الفارغة ويبدلون الشراشف، وفي لحظة واحدة كانوا كلهم بدرجة انحناء على مستوى واحد مع رؤوس الجالسين، وكلهم يتحدثون بهمس إلى الزبائن ويتبسمون وهم يحاذرون أن ينتبه إليهم حسن، وكأنهم مكلفون من شخص خفي بإبلاغ الزبائن بطرفة ما، انكب واحد منهم على طاولتنا يغير الطفايات ويزودنا بالمناديل الورقية ثم همس لنا كما يفعلون "اليوم سيتم حسن واحدًا وعشرين سنة.. وكان قد اتفق مع أصدقائه وزملائه على عمل احتفالية كبيرة ابتهاجًا بهذه المناسبة.. وهم الذين اختاروا محلاً فخما يليق بحفلهم ودفع حسن عربونًا ضخمًا.. وحدد التوقيت ثم اشترى "تورتة" كبيرة تكفي لعددهم، هم أيضًا من اختار المحل الذي يجيد صنعها.. وطالبوه بشرائها لأن نقودهم لا تكفي إلا لتقديم هدية رمزية له.. جلس حسن في المحل المختار من الساعة العاشرة.. ساعد عماله في تزيين القاعة بورق الزينة والبالونات.. وكل فترة يتصل بأصدقائه ويحثهم على المجيء بسرعة لمساعدته.. ثم جلس يشرب مشروبه وعندما انتهى منه ونظر إلى ساعته كان الوقت قد بلغ الحادية عشرة.. عاود الاتصال بهم لكنه فوجئ بعشرين هاتفًا محمولاً مغلقًا في وجهه.. ثم بإجابة مماثلة عندما اتصل بهواتف منازلهم: أهلاً يا حسن كل سنة وانت طيب فلان نزلك من بدري.. جرسونات المحل الآخر كانوا يتابعونه وكلما ازداد توتره بقدر تقدم الوقت.. كانوا يكتمون

بسمات سخرية.. كبير السقاة تقدم منه وقال بأدب جم: أنا وضبتلك الترابيزة وحطيت الـ٢٢ كرسي اللي قلت عليهم.. تحب أزود كرسي تاني؟... عندما بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف كان حسن قد تيقن من أن هذا مقلب سخيف من مقالب أصدقائه.. ورأى أن وجوده بذلك المكان الذي هو من غير رواده.. يحتفل بمفرده سيكون من مدعاة سخرية كل الحاضرين.. دفع باقي الحجز وحمل كرتونة الـ"تورتة" وجاء بها إلينا لأن المسافة بين المكانين غير بعيدة". كان الجرسون كلما تقدم في الحكي يهتز جسده كله وهو يكتم ضحكته تشفيًا في حسن، وعندما انتهى غادرنا بسرعة دون أن تلتفت عيناه تجاه جلسة حسن.. ثم حل بالمكان ظلام تام لمدة ثوانٍ، بعدها تقدم "المتر" حاملاً تورتة حسن مدفوسًا فيها ٢١ شمعة، وضعها بابتسامة على طاوله حسن، ثم أشعل فتايل جميع الشمعات، بينما انسابت من سماعات المكان أغنية عيد الميلاد، منضدتنا هي أول من قامت وجلست بجوار حسن، ثم نهض كل من في المحل بالتتابع، مما اضطر "المتر" إلى لصق المناضد بجوار بعضها البعض حتى تتسع لكل من يود الاحتفال، فجأة أصبح المحل منضدة طويلة من الباب المنزلق حتى المطبخ وتوالت أغاني الميلاد، أطفأ حسن شمعاته وانهالت عليه قبلات الزبائن، وتقدمت سائحة جميلة وقبلت حسن بحميمية وأصرت على مراقصته، وانكسرت تقاليد المحل لأول مرة وبدأوا في بث أغاني "الفاست والسلو" وتشجعت أخريات وراقصن حسن وهن يتخاطفنه من بعضهن البعض، وحينما قبلته وأنا خارج لامست دموعًا منسابة على خديه.

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يحدث مطلقًا

obeikandl.com

لم أعش مراهقتي بداخل قصة حب كما كان يتفاخر رفاقي، فلم يكن أمامي غير الجارات المسنات وأخوات أصدقائي المحرمات عليّ "كما ينص العرف غير المكتوب".. وكانت المجلات المصورة الجريئة التي اعتدت مطالعتها في تلك الفترة، والروايات الرومانسية المترجمة، تشعل خيالي وتلهب مخيلتي.. وأكاد أبيت كل ليلة مناشدًا "كيوبيد" إله الحب الذي تصوره تلك المجلات طفلاً صغيرًا مبتسمًا وتكاد تفيض منه الصحة والحيوية، مشرعًا نبلته بسهمها الرقيق تجاه العاشقين فتزرع القلوب في أجسادهم وتعلن كل اثنين منهما حبيبين.. ناشدته كثيرًا أن يجيء وتعجلت سهامه في كثيرات كنت التقيهن في الطريق.. طالبات مدارس.. عاملات مصانع.. موظفات حديثات التخرج لكنهن يكبرني بسنوات.. ونلت منهن كل ما يخطر أو لا يخطر على البال من سخريات وتقريع عدا الإيجاب والقبول.. فيبدو أن حداثة خبرتي بالمعاكسات وتعجلي الارتباط دفعني للإقدام بجرأة ودفعهن للفرار بعيدًا.. وعندما نضج سني أكثر واقتربت من دخول الجامعة.. تورطت مرة تحت تأثير إلحاح أصدقائي بالذهاب معهم إلى الجانب الآخر من النهر، قبالة المبنى الضخم الذي يعج بطالبات تدريب معهد التمريض حيث أماكن بياتهن.. أشرت لهن كما فعل الأصدقاء بالضبط.. أيادٍ كثيرة.. نحيلة وبدينة.. طويلة وقصيرة.. أشارت لنا من طوابق المبنى كله - أعلاه وأوسطه ومنتصفه - كان عدد أصدقائي أربعة وكنت خامسهم غير المعتاد على هذه الطقوس الحائرة بين انفعالات اللحظة والتوجس من نهايتها.. وكانت هناك مجموعات أخرى من الشباب تشير إليهن أيضًا

ويتلقون مثلنا نفس الإشارات.. لكن مجموعتنا كانت هي الأجرأ.. وتقدمنا الصديق الخبير المحنك مقتربًا أكثر من المبنى.. متجهًا بنا نحو زاوية المبنى ومبتعدًا عن بوابة الأمن التي تتصدر الواجهة.. بانت ملامح الفتيات الواقفات في شرفة غرفة من غرف الطابق الأول.. وبعد الابتسامات والضحكات المكتومة ألقت علينا زعيمتهن بورقة مطوية بين فكي مشبك غسيل خشبي.. بعد أن طالع أصدقائي الورقة باستهتار وحفظوا الموعد المدون بها غيبًا، ناولوها لي وتبسموا حينما وجدوني مهتمًا بتفاصيلها وحريصًا على الاحتفاظ بها..

كنا ونحن صغار، نضع في ليلة العيد ملابسنا الجديدة التي لا تتجاوز البنطلون والقميص أسفل الوسادة، حتى ننطلق بها عقب تكبيرات العيد.. وإن رضخ آباؤنا واشتروا لنا أحذية.. كنا نضعها بجوارنا في حال لم يكن لنا أشقاء يشاركونا الفراش، أو نضعها أسفل السرير في حالة ازدحام الفراش.. لأكثر من ثلاثة أيام كنت أقرأ الرسالة يوميًا في الصباح والمساء وقبيل النوم، ثم أضعها بعناية تامة أسفل الوسادة، تلك الرسالة الصغيرة المكتوبة بخط رديء والمحتوية على عدد لابأس به من التعليمات، منها طريقة التعرف عليهن باستخدام كلمة السر، والتأكيد على ألا يزيد عددنا عن خمسة لأنهن صديقات بنفس العدد..

في اليوم المتفق عليه كنت أسبقهم في الخروج من المدرسة، وفي انتظار بقية الصحبة، وكان قلبي يرجف رعبًا من ألاعيب أصدقائي ودلعهم المائع، فغالبًا سيدّعي أحدهم انشغاله عن الموعد وسيتكاسل بعضهم،

وفي نصف الطريق قد يتراجعون، وكنت حريصًا على إتمام الموعد والاستمتاع بأول صحبة للبنات على مستوى الواقع، وكنت متشككًا في حظي الذي خذلني كثيرًا حتى وجدت شلة الأصدقاء بكاملها بجواري، لعبنا مباراة الكرة التي اعتدنا على أدائها عقب الخروج من المدرسة، والتزمت حد الأدب خلال المباراة ولم ألعب بخشونة، أو أذُد عن فريقي ببسالة تلقي بالمنافسين أرضًا كالمعتاد، لعبت بأداء باهت وخسرنا المباراة ولم أزعل أو أنفعل أو أتشاجر، واستقبلت دهشتهم من تصرفاتي بلا مبالاة، فليس هذا لعبي ولا هذا أدائي، لكني كنت في تلك اللحظة أحرص على ألا يصيبهم ضرر حتى لا يفشل الموعد..

عبرنا الكوبري الذي يصل بين الشاطئين بصخب وهرولة، وعندما اقتربنا من المبنى المنشود أبطأنا سيرنا ورتبنا ملابسنا واتخذنا سمات العشاق الجادين، ووقفنا بجوار مولد الكهرباء الضخم كما هو مذكور في التعليمات، وكلما اقتربت مجموعة من بنات المعهد كنا نهمس لهن: الحب جميل، فيشيعوننا بالسخريات اللاذعة والضحكات المبتذلة، حتى أتت الفتيات الخمس غندورات متأنقات، وما أن سمعن كلمة السر حتى ابتسمن ورددن بود: الجب جميل للي عايش فيه، تصافحنا وتكلمنا ورضا كل منا بقسمته سواء كانت سمراء أو شقراء، طويلة أو قصيرة، نحيلة أم بدينة، ولكي لا يضيق بعضنا على بعض، اصطحب كل واحد منا صاحبته التي تعرّف عليها لتوه بعيدًا عن الآخرين، وافترقنا في شوارع متوازية، كان اسم صاحبتي سناء أو هكذا ادّعت، وكانت وحيدة والديها، وجمالها لا بأس به وإن كان جسدها يميل قليلاً

إلى البدانة، وكنا بمنتصف الشارع الشاعري الذي يصطف الشجر على جانبيه، والذي اخترناه سوياً، ولم نكن قد أكملنا خمس جمل مفيدة، ولم تكن أصابعنا قد تلامست، حتى باغتنا من الخلف صوت مزعج لدراجة بخارية، تحركنا تجاه اليمين قليلاً مقتربين من الرصيف بسرعة، وتركنا له نهر الشارع كاملاً ولكنه كان يبدو مصرًا على إزعاجنا، كان صوت المحرك المزعج يكاد يلاصقنا، وعندما قفزنا فوق الرصيف كانت الدراجة قد سبقتنا ورأيتها بوضوح، كان قائدها شخصًا ضخم الجثة وكان صندوقها الجانبي يعتليه شخص آخر، كنت على وشك أن أسبهما بعدما رأيتهما مبتعدين، غير أن استدارة غبية للدراجة وصندوقها وضعتنا وجهًا لوجه أسكتتني، كانت البنت تمسك بذراعي وتضغط عليه بقوة، وكانت الدراجة تقترب أكثر، وكنت أفاضل بين مواجهتهما والشجار لأكسب البنت إلى صفي أو المهادنة، لكنهما لم يتركا لي فرصة، توقفا في مواجهتنا بالضبط وأظافر البنت تكاد تخترق لحم ذراعي. الشاب الذي كان جالسًا في صندوق الدراجة قفز منه شاهرًا سكينًا، وقائد الدراجة ظل ينظر تجاهنا باستخفاف، بدأ صوت البنت ينهنه بالبكاء وهي محتمية خلف ظهري، كان أصدقائي على مسافات بعيدة في شوارع أخرى، وهذا الشارع يبدو مهجورًا، استعرض الشاب سكينته على مقربة من صدري وأنا أتراجع ببطء، حسم قائد الدراجة الأمر بهدوء وهو يوجه كلامه لها: بطلي عياط واستعباط واركبي معانا. دموعها اخترقت ظهري ودفعتني للاعتراض بكلمات خائبة، ابتسم قائد الدراجة وأكمل: انت تلميذ ماتضيعش مستقبلك، والبنت دي إحنا

نعرفها كويس وتلزمنا، اخلع. قبل أن أناقشه، التف الشاب الآخر بسرعة وجذبها من خلفي، لم تُبد مقاومة كبيرة ربما خوفًا من سكينه، ولبدت في صندوق دراجتهما كخروف يساق إلى المذبح، نظرت تجاهي مرة واحدة بعيون دامعة أثناء انطلاق الدراجة.

لم أنم ليلتها إلا حينما ارتكنت إلى فكرة أنهما يعرفانها من قبل، وفي الصباح كنت أستمع بقلق إلى قصص أصدقائي مع الأخريات.. التي أصرت على الذهاب إلى السينما والتي صممت على تناول العشاء في مطعم فاخر والتي تمنت أن تلهو بمدينة الملاهي، ولم أقص ما حدث معي ولم يطالبني الأصدقاء بذلك.. والغريب أن بعض أصدقائي ظلوا على علاقة بهؤلاء الفتيات لفترة ولم يسألني أحد عن مصير فتاتي..كأنها كانت شبحًا جسده خيالي، وإلى الآن في أحيان كثيرة أتصور أن هذا لم يحدث مطلقًا.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

المتحوّل

obeikandl.com

كان سائرًا في منتصف الشارع بالضبط، وسارينات سيارات خلفه تدوي بتواصل وسباب لاينقطع مصحوبًا بخروج رؤوس من نوافذ السيارت تنظر تجاهه محملة بكل الانفعالات الحادة، نبه بعض الجالسين على المقهى للمظاهرة التي خلفه، وسخر منه أحدهم قائلاً: وسّع يا جدع هو انت ماشي في أوضة النوم. وعندما لم يهتم، جرّه عامل المقهى من يده وصوت "الماركات" المعدنية التي في جيبه يصلصل من عنف الجذبة، ركنه عامل المقهى فوق الرصيف وانطلق إلى زبائنه، بينما وقف صاحبنا يتأمل الكراسي والمناضد الخالية الرابضة فوق الرصيف، وعندما قرر الاختيار اختار الطاولة التي أجلس عليها، ثم ألقى بجسده فوق الكرسي الذي على يميني، وأصبح لا يفصلني عنه غير المنضدة التي تتربع عليها قهوتي ونظارة المشي وعلبة السجائر والولاعة، عدت أتابع صفحات الجريدة التي كنت قد أهملتها وأنا أتابع معركته مع السيارات، رمقني بنظرة جانبية جعلتني أستغرق أكثر في القراءة، بدأ يتعامل وكأن البيت بيته، فتح علبة سجائري وأخذ منها سيجارة دون استئذان، وظل يحاول فتح الولاعة التي كانت ذات تقنية جديدة، وزر فتحها له باب سري صغير لابد من جره إلى أسفل حتى يبين الزر، أخذت الولاعة من يده وأنا أريه باستعراض كيف يفتحها، ثم أشعلت له السيجارة التي انتشلها دون رغبة مني، قال ببرود: وإيه لازمة كل ده؟ مش كان الكبريت أحسن؟ استفزني جدًا فوضعت الولاعة بجيبي وقلت محاولاً التخلص منه: المصنع اللي عملها اختار التصميم ده علشان الأطفال ما تعرفش تستخدمها. ضحك ضحكة

طويلة ممطوطة وهو يقول: لا وانت الصادق علشان اللي بيحرقوا المخازن في الجرد ما يعرفوش يحرقوها. ثم أعقب كلامه بضحكة تحمل من الهيستريا الكثير، جعلت رواد المقهى على الجانب الآخر يلتفتون إلينا، فردت صفحات الجريدة وقررت إهماله متحركًا بكرسي قليلاً إلى اليسار ومعلنًا له دونما إفصاح عن تجنبه، أخرج من حقيبة يده السوداء "هيدفون" وضع سماعته في أذنيه، وظل فترة يحرك جسده على إيقاع ما يسمعه، كان مرتديًا قميص داكرون أسود وبنطلون جينز مهترئ عند الركبة، وذا لحية سوداء شعثاء مختلفة عن لحى المتدينين، وعدسات نظارته مستديرة تمامًا وسوداء أيضًا، كان أداؤه وطريقة لبسه قريبا الشبه بشباب الأغنياء المترفين، وبالفنانين البوهيميين وبمنظري السياسة خريجي الجامعات الأجنبية، لكنه رغم كل هذه التشابهات بعيد عنهم، وحدسي يؤكد لي أنه مسخ، ولما ازدادت حركات جسده وبدأت تتسلل من فوهتي سماعتي أذنيه إيقاعات لأغانٍ أجنبية صاخبة، حل بي بعض الخوف والتوجس، وظللت أفكر في طريقة للانسحاب من هذه الجلسة، دون أن يدرك أحد من رواد المقهى بتوتري وخوفي، لكنه في تلك اللحظة بالذات أبطل الأغنية ونزع سماعاته ووضع جهازه في حقيبة اليد بعجالة، توهمت أنه سيغادر المكان واستغرقت لوهلة في الصور التي تتصدر الحوار الصحفي لفنان تشكيلي محدود القيمة، كان معينًا رئيسًا للمجلس الأعلى للفنون التشكيلية، وسجن لمدة شهر لأن اللوحة العالمية "زهور الخشخاش" لفان جوخ سُرقت من عهدته، كان الشاب الصحافي الذي أجرى معه

الحوار بحسن نية أو بغيرها قد ملأ الصفحة بعبارات مثيرة اقتطعها من أقواله تتخللها صور لرسومات متواضعة لهذا الفنان التشكيلي، الرسومات بائسة جدًا والفنان التشكيلي يشكو حبسه ظلمًا، ثم يقول إن لوحة فان جوخ المقدرة بملايين الدولارات تافهة ولا تساوي شيئًا، بينما وهو حبيس كان يرسم لوحة كل يوم، وأن لوحاته هذه ستدخل تاريخ الفن العالمي، كان الطبيب قد منعني من احتساء أكثر من فنجانين من القهوة يوميًا حتى لا يرتبك الضغط، لكنه لم يقل شيئًا عما تفعله هذه الحوارات بمكانيزم الجسم كله، أصابع صاحبنا الذي يجلس على يميني والتي عبرت المنضدة ولامست صورة الفنان في الجريدة أخرجتني من الحالة، التفت إليه فبادرني بالحديث بصوت منخفض كأنه يسر إلي بسر: تعرف مين اللي سرق لوحة شجرة الخشخاش؟ كنت قد قيمته سابقًا بأنه خريج تعليم متوسط، لكني رفعته في هذه اللحظة درجة وأنا أجيبه: لسة مالقوش اللي سرقها؟ قاطعني: ومش حيلاقوه.. علشان ده متحوّل. لم أفهم ماذا يقصد فأعدت كلمته :متحوّل؟ أجابني بثقة: أيوة متحوّل.. شخص متحوّل.. يخش المتحف كأنه حتة خشب، لو حد شك فيه يبقى عمود حديد أو هواء أو فرع شجرة، وياخد اللوحة ويخرج. ابتسمت لطرافة الفكرة فاستُفز جدًا من ابتسامتي وجذب شنطته بعنف، وقام بسرعة وغادرني وهو يسب بصوت مسموع: ناس جهلة لو قعدوا مية سنة مش هيفهموا برضه. فجأة عاد نهر الطريق إلى جلبته، وأغلقت الجريدة وأغمضت عينيّ أحاول ملاحقة صور المتحوّلين...

obeikandl.com

obeikandl.com

الهابطون من السماء

obeikandl.com

رقائق النحاس المطموس التي كانت تكسو درابزين السلم هي التي كانت تلامس كفي اليسرى وأنا أهبط درجاته الرخامية باندفاع، ملمسها الناعم البارد وشكلها نصف الأسطواني كان يريح باطن يدي التي تعرف منحنياتها الحادة وفجواتها المدببة وتتفادها بمهارة، وبتزامن مدهش عندما كنت أخرج من باب شقتنا كان إبراهيم يخرج من الشقة المقابلة مبتسمًا وهو يهتف باسمي الذي حذف منه الحروف الزائدة وأبقى على الحروف التي يقدر على نطقها، كان يتعثر في مشيته وأسارع باحتضانه وتقبيله ومنعه من الوقوف، وأرقب من فوق رأسه ظلالاً تروح وتجيء في هرولة وبالكاد أميز منها جسد إحدى شقيقتيه أو أمه وإن كنت أعجز عن معرفة من منهن التي فتحت له الباب لتصبّح عليّ.

أحيانًا كنت أطبطب عليه بعجالة ثم أتملص منه بصعوبة وأكمل هرولتي تجاه أصدقائي الواقفين في فناء البيت بالكرة "الشراب" يتعجلونني بالصفافير، وأحيانًا كنت أقبّله بفتور وأدخله عنوة في شقته ثم أعدو للحاق بموعد المدرسة.

سنوات خمس كانت تفصلني عن إبراهيم، الذي لم يعبر سن الثالثة بعد، شقيقتاه الكبريان كانتا تنهراني كثيرًا قبيل مولده وحتى بلوغه عامه الأول، عندما كنت ألعب على البسطة التي بين شقتينا، أخي الأكبر أيضًا عندما كان يعود من ثكنات الجيش في كل إجازة، كان يعنفني بشدة لأني ضايقتهما، غير أنه بعد أن فسخ خطبة أخت

إبراهيم الكبرى لم يعد يهتم بزجري ولا بتحذيري من اللعب على البسطة.

حين وُلد إبراهيم زغردوا وهللوا، وقاموا بعمل عقيقة في سبوعه، أبي حضر العقيقة بينما انصرفت أمي بسرعة بحجة أني محموم، رقدت في سريري وكل فترة أقف وأرقبهم من نافذة الغرفة، محاذرًا أن يلمحني أحدهم فيعرف أن أمي تكذب أو تدخل أمي الغرفة فجأة فتضربني، أخي أيضًا لم يحضر العقيقة مدّعيًا أنه حبيس سجن الوحدة العسكرية، كما علمت من حوار أبي وأمي ليلاً وأنا أتنصت عليهما.

في ذلك اليوم البعيد جدًا، لم يُفتح بابهم بمجرد خروجي إنما كان مواربًا وإبراهيم واقف أمامه ينتظرني، لم تكن معي الشنطة الدراسية لأننا كنا في العطلة، وكانت بحوزتي كرة بلاستيكية أهداها إليّ أخي من أول راتب له، رأيت إبراهيم، فخبأتها خلف ظهري لكنه لمحها، وأصر على الإمساك بها وتحسسها، ناولتها له على مضض، بعد أن انتهى من التلمس والاحتضان، أشار إليّ بأن أبتعد حتى نهاية البسطة، ثم وضع الكرة على الأرض وحاول ركلها بقدمه الصغيرة، نجح مرة وأخفق مرات، وفقدت الاهتمام بما يفعله من زهقي ورغبتي العارمة في لقاء أصدقائي لأريهم كرتي الجديدة، نتشتها منه فغضب ثم بدأ في البكاء، خشيت أن تخرج أمه أو إحدى شقيقتيه وتؤنباني فحضنته في محاولة لإسكاته، وظللت أهمس في أذنه وأقطع على نفسي عهودًا بأني سأعود بسرعة وسألعب معه طويلاً، أخيرًا تبسم وبدى وجهه راضيًا، انتهزت

الفرصة بسرعة وعدوت على الدرج والكرة في حضني وصوته يسبقني قبل الوصول إلى بسطة كل طابق أصل إليه "باي"، ولما بلغت فناء البيت وكنت في مواجهة باب المنزل الخشبي وصلني صوته أكثر قوة وهو ينادي بإلحاح باسمي المجرد من الحروف الزائدة، رجعت إلى مسقط السلم الذي يتيح لي رؤيته خلف "الدرابزين" في الأعلى، رأيته ونصفه أعلى الدرابزين ولما رآني مدّ كفه الرقيقة وقال "باي"، رددت التحية واستدرت تجاه باب الخروج بخطوات أسرع، بادرني صوت مدوٍ مكتوم في نهايته، كأن أحدًا نجح في إلقاء وسائد من القطن والإسفنج عليه لوأده، التفتّ فوجدت إبراهيم راقدًا على ظهره، هرعت إليه وارتميت عليه أتحسسه، كان جسده كله سليمًا وبضعة دماء سوداء تخرج من أنفه، وكانت شفتاه مازالتا تقتربان وتبتعدان في وهن وحروف مهشمة لكلمة "باي" تخرج منهما، حملته على صدري بصعوبة وأبواب شقق المنزل تفتح كلها وتخرج منها نساء ورجال وأطفال يهرعون على السلالم أو ينظرون عبر "الدرابزين".. هرع تجاهي ساكن شقة الدور الأرضي وحمله عني وهو منزعج وكان وجهه ممتقعًا جدًا وهو يسألني عن أسباب وكيفية وقوعه، لم أكن في حالة جيدة وأنا أرد عليه بصعوبة ومدخل البيت يتحول إلى ساحة للفرجة، وملأ الصراخ والعويل المكان كله، وبت أتعثر في أجساد رجال وسيدات وجوههم غير مألوفة، وتكومت في ركن أرقب ما يحدث بدهشة ولم أبكِ حينها حتى وأنا أرى من بين أقدامهم رجال الإسعاف يقتربون بالمحفة من إبراهيم ثم يرفضون حمله، ورأيت أحد الجيران يضع على جسده بطانية، وميزت

أصوات أمه وأختيه وصرخاتهم الملتاعة وهم يهبطون السلم، فتسللت من المكان غير عابئ بكُرتي الجديدة التي اختفت بين أقدام من لا أعرفهم.

وضعني أبي طوال فترة الإجازة الصيفية في منزل عمي، وتركني أعيش وسط أبناء عمي الذين كنت أستغلسهم ولا أطيقهم، وكلما شكوت لأمي أو أبي عند زيارتهما الأسبوعية لي في مقري الجديد، كان أبي يُهدّئني ويطلب مني أن أصبر قليلاً ثم يهمس في أذني يبلغني بأنه أشاع في البيت بأني مخضوض ونفسيتي سيئة من الذي حدث، وكنت أدهش لماذا يهتم أهل البيت بغيابي عنه أو وجودي فيه وهم بالكاد يعرفونني، لكني لم أخبر أبي بذلك، جل شكاويّ كانت من الصحبة التي فرضت عليّ مع أولاد عمي الذين لا يروقون لي، والذين كانوا يتجاهلونني في اللعب، وإذا ما أُجبروا على مشاركتي ثبتوني في أسوأ مراكز اللعب، حارس مرمى أذود عن طوبتين هما حدود المرمى، وأقاسي من احتكاك اللاعبين الأكبر سنًا مني، وأتلقى ضرباتهم دون أن أعترض أو أبكي خوفًا من سخريتهم، أو أتدحرج على أسلفت الشارع الذي يبخ نارًا في عز الظهر "الموعد المفضل للعب" وأنا أُطارد الكرة الصغيرة وأمنعها من دخول المرمى، وأعود إلى المنزل بجلطات متعددة في الساق والركبة، وطالت مدة الإقامة عند عمي وكلما أتى أبي وأمي لزيارتي كنت أتوقع عودتي معهما، لكني كنت أباغت بوقوفهما المتزامن وتسليمهما على عمي وزوجته بحرارة، ثم يدير أبي ظهره لي وتحتضني أمي وهي تدس في جيوبي هداياها من كل أصناف الحلوى التي أحبها وأشتهي أن يسمحوا

لي بشرائها، ويغادر أهلي منزل عمي وسط صراخي ودبدبتي على الأرض بدون أن يحن قلبهما عليّ فيتراجعا ويأخذاني معهما، وحين اقترب موعد دخول العام الدراسي التالي أتى أبي بمفرده لإعادتي إلى البيت.

كان الوقت مساءً وبدا بيتنا بسكونه وشرفاته الموصودة وقصاري زرعه المجرد من الأوراق الخضراء كأنه بيت آخر، حتى شقتنا من الداخل بدت مختلفة أيضًا رغم أثاثها الذي لم يتبدل وجدرانها التي لم تدهن منذ وعيي وإدراكي، احتضنتني أمي وأبي يجاورها على نفس الكنبة وكان هذا شيئًا غريبًا، وكان أخي الكبير يجلس قبالتهما وكان هذا أعجب، فلم نجتمع هكذا في مكان واحد منذ أدركت مسميات الأشياء والعلاقات فيما بينها، أومأ أبي برأسه تجاه أخي الذي أمرني بصوت خفيض بأن أتحرك نحوه، خفت وترددت لكن كف أمي دفعتني برفق تجاهه، ربت أخي رأسي فدهشت وقال كلامًا كثيرًا، قد يكون أكبر من استيعابي حينذاك، عن القدر والنصيب والحزن وعدم وجوب أن أستغرق في زعلي لأني أفتقد إبراهيم، لأن إبراهيم هو الآن في أفضل مكان عند الله فهو قد صعد إلى السماء، ثم تبسم وهو يضيف بيقين أن إبراهيم سيفرح في السماء كلما عرف بنجاحي وتفوقي، عدت إلى حجر أمي بعد أن نادتني فوجدتها تخرج من صدرها حبلاً رفيعًا يتدلى منه مربع صغير من الكتّان الرخيص، وضعت الحبل حول رقبتي وشبكته من خلفي وسط استياء أبي، ثم جعلتني أتحسس المربع الصغير وهي تقول لي إن به كلام ربنا لكي يحفظني وأنه يجب ألا أخلعه إلا عند دخولي الحمّام ثم ألبسه مرة أخرى بسرعة، وحلفتني بالله ألا

أجبن أو أخاف عند صعودي أو نزولي السلم وألا أبكي فالحجاب يحفظني، عندما خرجت من الغرفة كانت دهشتي تزداد من مخاوفهم، وكنت غير حزين بالمرة على إبراهيم بل كنت أحس به في سماء الغرفة يرقبهم ويضحك معي على تصرفاتهم، وعندما كبرت عدة سنوات، كنت كلما تذكرت إبراهيم أحس بأن صعوده إلى السماء كان محتومًا، بل أحيانًا كنت أظن أنه أصلاً من خارج عالمنا وجاءنا زائرًا وحين حانت لحظة عودته غادرنا سعيدًا.

بعد تلك الجلسة لم أعد أُدهش من لهفة الجبران على لمسي والتربيت والاطمئنان عليّ كلما قابلوني في الصعود أو الهبوط، الذي كان يشغلني جدًا أيامها هو الباب المغلق على الدوام لشقة أهل ابراهيم، كنت أحيانًا أخرج من شقتنا وأتعمد جر رجلي على البسطة الرخامية حتى يصدر عنها صوت يجعلهم يفتحون بابهم، لكن لا فائدة ظل الباب مغلقًا لمدة طويلة، حتى شباك غرفتي التي أصرت أمي على إغلاقه نهائيًا، حين كنت أتلصص من ثناياه كنت أجد شباكهم مغلقًا أيضًا، وإن كنت أحس أحيانًا بأن أشباح عائلة إبراهيم تعدو من خلف الباب وتروح وتجيء وأحيانًا تقف لتراقبني، ولم أكن أخاف ساعتها وكنت أقف متعمدًا وأمعن النظر في الزجاج المصنفر حتى تختفي الخيالات. ثم حدث شيء عجيب ذات يوم حين خرجت ففوجئت ببابهم مواربًا، تلكأت وتشجعت واقتربت أكثر من موضعه، فتحة الباب اتسعت قليلاً وبرز من خلفه وجه شقيقة إبراهيم وعليه ابتسامة، أومأت إليّ فاقتربت أكثر، مدت يدها وسحبتني إلى الداخل، فجأة وجدت نفسي

بداخل آخر غرفة في شقتهم وعيون عديدة تتفحصني وأنا كالمنوم مغناطيسيًا، البنت الكبرى كانت جالسة بجوار الأم المسدلة على شعرها غلالة بيضاء واندست البنت الوسطى التي سحبتني بجوارهما على نفس الأريكة، الأب كان على الجانب المقابل لهنّ يجلس على كرسي "فوتيه" وأشار إليّ بأن أقترب وأجلس على الكرسي الذي بجواره، اقتربت خائفًا ووقفت أمام الكرسي رافضًا الجلوس عليه، نهض من على كرسيه وملأ كفه ببعض حبات البلح التي كانت متراصة فوق صينية على المنضدة التي تتوسط الغرفة، قدمها إليّ فرفضتها لكنه وضعها في جيوبي وأنا كالمشلول عاجز عن الرفض أو الابتعاد، سألتني البنت الكبرى كيف وقع إبراهيم وما الذي قاله لي بالضبط قبل الوقوع، وسألتني الأم وهي تمسح وجهها بالغلالة هل بكى أو تألم؟ وطلب مني الأب أن أصف مكاني بدقة في أثناء وقوع إبراهيم، وكلما أخبرته بأني كنت في أسفل البيت وإبراهيم في الأعلى كان يقاطعني ويسألني عن مدرستي وأخبار أهلي ثم يعود ليباغتني بنفس السؤال، وفي نهاية الأمر قال بنفاد صبر: يعني ماكونتش واقف معاه فوق بتوريه المنور وبعدين غصب عنك وقع منك؟ من المؤكد أن دهشة الطفل الكبيرة التي ملأت وجهي أقنعته بصدقي، أو حننت قلب البنت الصغرى تجاهي لأنها نهضت وسحبتني من يدي وفتحت الباب بحذر وهي تدفعني برفق خارجه.

أصدقائي في المدرسة ما عادوا ينتظرونني في فناء البيت وينادونني بالصفافير، ولا حتى أصبحوا ينتظرونني خارجه، ورفضوا أن

يقاسموني البلح الذي منحته لي عائلة إبراهيم، وقالوا لا نأكل من أكل الميت، لفظت باقي البلحة التي بداخل فمي وأعطيت ما تبقى لفراش المدرسة، وعدت إلى البيت حانقًا على المدرسة وعلى أصدقائي الذين بدأوا يتباعدون عني، وكلما تجمعوا سألوني أسئلة عجيبة، هل طلع لك عفريت في منور السلم أم دخل عليك الغرفة؟ هل ترى قطة سوداء تتبعك أينما سرت في الليل؟ وكانوا يكذبونني مهما أقسمت لهم، أو يحدثون بعضهم بعضًا أمامي بأن العفريت لن يظهر لي طالما أنا أرتدي الحجاب، صارت هذه الأحاديث تستفزني وجعلتني أخلع الحجاب في الصعود والهبوط، وأتحدى العفريت أن يظهر لكن العفريت خذلني، ثم ورطني الغضب في الاعتراف لأمي بكل شيء، وجن جنونها فور علمها بجلسة المحاكمة التي انعقدت لي داخل شقة الجيران، ونجح أبي وأخي في السيطرة عليها بصعوبة، فقد كانت تهدد باقتحام شقتهم وبهدلتهم. ظل أبي يوبخها بعنف ويقول لها إنهم معذورون فمصيبتهم كبيرة، لكن زاد تشنج أمي فطلبوا لها طبيبًا، هدأت قليلاً بعد الحقنة التي أعطاها لها الطبيب، غير أنه في خلال أيام معدودات كان أبي قد أجر شقة أخرى في منطقة أبعد، وكانت الشقة أصغر والمدرسة التي نقلوني إليها بائسة ولا ترقى إلى مدرستي القديمة، لكن كلما مر يوم جديد في تلك المنطقة كنت أكسب زميلاً جديدًا ونتفق على الإشارات التي سنلبي بها نداءات بعضنا بعضًا، وبت مطمئنًا أنه لن تباغتني وتغيظني الأسئلة عن القطط والعفاريت.

obeikandl.com

لا أحد قادر على قهرها

obeikandl.com

أعرف معنى أن تُلِّح إلهام في طلبي مرات متتابعة، ثم تترك رسائل تبدأ محايدة وتنتهي بالسباب، أتحملها حين تعاتبني بقسوة وسط أصدقائنا، وأغفر لها كثيرًا فلتات لسانها، الذي تطلقه دون أن تدرك ما يقودها هذا اللسان الأضبش إليه، لأنها صديقتي الأثيرة وكانت حبيبتي في فترة من فترات حياتي، وهي ملمة بكل تفصيلة مني وأنا مدرك لكل دقائقها، مغرم بهذا التكوين المدهش، الطول الفارع والجسد المتناسق والبنية القوية والحديث دون مواربة والبوهيمية التي تجعلها فرسًا جامحًا حقيقة لا مجازًا، وكلما كبرت ازدادت تألقًا بقدر زهد الرجال فيها، ربما لأنهم يتخوفون من ضخامتها، أو لا يقدرون على لجمها، أو لا يصبرون على معيشتها، أو لا يتحملون صدقها الذي من الممكن أن يؤيد حكم الإعدام ضدهم لو طُلِبت للشهادة في واقعة ارتكبوها، لديها معرض قريبًا وهي عاكفة على رسم وتجهيز لوحاته، وتريد أخذ رأيي فيما أنجزتْه كالمعتاد، على الرغم من أني أكدت لها على أني لن أرى أيًّا من رسوماتها قبل موعد افتتاح المعرض . كالآخرين . لأني أفضل أن أدخل القاعة هذه المرة كالزبائن والمهتمين مصطحبًا معي دهشتي، التي كنت أتركها قبلاً في الخارج لأني رأيت ما تعرضه قبل الآخرين، وتقبلتْ الأمر في البداية، ثم بدأتْ تعد فخاخها، تتصل بي وصوتها هامس متهدج : "أنا تعبانة قوي ومحتاجة حد ياخدني لأقرب دكتور"... وانتي فين يا إلهام دلوقتي؟ ترد بغيظ: "إنت حتستعبط، في المرسم طبعًا.."، حاضر مسافة السكة حكون عندك. ولا أذهب بالطبع وأغامر وأغلق هاتفي المحمول، وبمجرد فتحه في اليوم التالي تنفجر في

وجهي رسائلها الممزوجة بمياه البالوعات، ثم تهدأ وتضحك عندما تدرك أن إصراري في هذه المرة ورغبتي في عدم زيارتها عائد إلى تفضيلي أن أرى إبداعها في عيون الناس، وأفرح به معها في موعد افتتاح المعرض، تمر فترة وجيزة ويأتيني صوتها وهي تتكلم دون انتظار لما سأقوله: "أنا لسة مخلصتش حاجة وعندي اكتئاب حاد وبلعت كل شرايط المهدئات"، ثم تغلق الهاتف في وجهي، بعدها بدقائق ترسل إليّ رسالة قصيرة: "علشان خاطري ماتخليهمش يشرَّحوا جثتي.. إديهم رشوة واقف معاهم وهمَّا بيغسِّلوني، أنا ما عنديش غيرك.. وما تعملش تأبين ولا تعرض الرسوم المشئومة اللي ماقدرتش أخلصها دي"، ثم تغلق هاتفها وأنا بالطبع لا أذهب إليها، وتمر ساعات وأيام ولا أسمع عن انتحارها أو تعرُّضها حتى لمغص أو إسهال، لكن هذه البقرة الحلوب لا تتوقف بعد فترة المخاصمة.. تكلمني هذه المرة بلا عتاب، وبصوت يقوده العقل والاتزان: "خلصت أكتر من ٨٠% من رسومات المعرض.. بس مش عايزة أنزِّلَك وسط البلد عشان ما اتورطش في الأحداث وتاخدني النداهة وأنزلها كل يوم وما اخلصْشي.. وانت واحشني قوي.. وعلى فكرة أنا اشتريت قماش قلع المراكب وغطيت كل اللوحات.. يعني مش حتشوف لوحاتي الجديدة، تقدر دلوقتي تيجي نسهر شوية وبعدين تمشي.. ويبقى برضه ما شفتش اللوحات قبل المعرض ومفقدتش الدهشة دي اللي انت مغلبني بيها".. خرجت على الرغم مني ضحكة كالقذيفة وأنا أقول: "لا يا بنتي انتي هبلة؟ هو انتي افتكرتيني المفتي لمَّا زار كلية الفنون الجميلة؟ والعميد غطاله كل

التماثيل اللي في مدخل الكلية..." أغلقتْ في وجهى الخط دون أن تعاود الاتصال حتى اليوم التالي الذي غمرتني فيه برسائل كثيرة: "الحقني أنا في كارثة" رسالة رقم (١)، "أنا في كارثة فعلاً مش بهزر" رسالة رقم (٢)، "أنا اتسرقت.. سرقوا كل حاجة في المرسم" رسالة رقم (٣)، "تصدق بالله أنا بنت مرة وسخة إنى باعبَّر واحد (..) زيَّك" رسالة رقم (٤)، "على فكرة أنا لا اتسرقت ولا حاجة.. وتقدر تنام وتشخر وتِلْبَد للبنات الصغيّرة في المطاعم والكازينوهات.. أنا أصلاً غلطانة إني لسَّة باعرفك.. هو أنا حاخد زمني وزمن غيري" رسالة رقم (٥)، لمرات كثيرة ظللت أقرأ رسائلها وأضحك، لكن الرسالة رقم (٥) بالذات هي التي أثرت في وجداني وجعلتني أتفاعل معها، وبعد أن أنجزت مهامي اليومية ونمت قيلولتي قلت لنفسي إنها لن تهمد إلا حين تريني لوحاتها الجديدة، خصوصًا لأنها أخبرتني بأنها غيرت أسلوبها الفني وقررت رسم الـ NUDE "الفن العاري" لمقاومة التزمّت الذي يجتاح مجتمعنا حاليًّا وحملت دفتر "اسكتشاتها" ودارت به على القاعات، حتى وجدت قاعة تحمست لأعمالها، فرحتْ غير آبهة لردود الأفعال المناوئة التي تكاد تصل إلى العنف، كدأبها في التحدى والمواجهة، وكنت أتوقع حدوث مصيبة ما في أثناء أيام العرض، ينتقدها أحدهم انتقادًا غير فني، فتمسح به أرضية القاعة، فيخرج ويعود بمن يهدرون دمها.

وتذكرت وجودنا في مطعم معًا وهي تكلمني عن تجربتها الجديدة بحماس، وأنا أحاول ردها إلى ما اعتادت عليه من طرق فنية، لأني رأيت ما تفعله بمثابة ردة فعل طفولية ، نظرت إليّ طويلاً باستياء ثم

سألتني: والعمل؟ أجبتها بأن نمضي فيما كنَّا نقدمه من فنون ولا نكون البادئين بالاستفزاز، علقت باستهانة: استفزاز.. شوف بقى يا عاقل يا كُمَّل.. تفتكر لو عملنا نفسنا مش شايفينهم حيسبونا في حالنا؟.. إنت واهم.. دول حيقلبوا علينا كل حجر ويلاقونا ويقرفونا في عيشتنا. حضر الطعام فسكتُّ حتى يتوقف الجدل، وضعت في طبقي قطعة اللحم وسكبتْ فوقه "الصوص" الذي أفضله وابتسمت وهي تقول: بالهنا والشفا. وانهمكتْ في تقطيع قطعتها وتذوقها وأبدت استحسانها، ثم اقتحمت جلستنا سيدة منقبة كانت تجاورنا مع أولادها في منضدة قريبة، توقفنا عن الأكل ونظرنا إليها بدهشة، عبرتني عيون المنقبة كأنني غير موجود أصلاً وانحنت برأسها إلى أذن إلهام تُسرُّ إليها بأمر ما، قلت في نفسي: "ربنا يستر لو كلِّمت إلهام عن شعرها المسترسل وسفورها.. هتلاقي طبق الشوربة السخن في وشها" وشبيه بما توقعته قد حدث، وجدت إلهام تنهض بعصبية حتى أن المنقبة بوغتت وتقهقرت إلى الخلف حتى وقفت في مساحة آمنة، وإلهام لا تزال ممسكة الشوكة بيدها اليسرى تشوح بها، وتوجهها نحو المنقبة بصورة تهديدية لا يختلف عليها أحد وهي تزعق: شمال إيه ويمين إيه ياست يا متخلفة؟ بتفتي في أمور الدين وإنتي جاهلة، ثم تواصل الكلام وهي توجه حديثها تجاه الرؤوس المتطلعة إليها من فوق المناضد.. بتقولّي حرام تاكلي بإيدك الشمال.. الجاهلة ماتعرفش إن ده خلل فسيولوجي مش دلع.. واللي بتفتي في الدين ما تعرفش إن سيدنا عمر كان أشول، ثم تعيد توجيه الكلام إلى السيدة المنقبة التي كانت منزعجة جدًّا

لدرجة الارتعاد من صوت إلهام المرتفع.. يعني كان بياكل بالشمال وبيحارب بالشمال.. نجح "المتر" في إعادة السيدة المنقبة إلى مكانها بعد التنبيه عليها بعدم الاحتكاك بالزبائن، وكانت غالبية الرؤوس المتطلعة إليها قد اعتدلت ورجعت إلى ما كانت عليه، إلا بعض الرؤوس الفضولية التي كانت لا تزال تتابعها حتى بعد جلوسها وسط محاولاتي للسيطرة عليها، ولم تسترح إلهام وتهمد إلا بعد خروج السيدة وهي تجرجر أطفالها، لم تُكمل أكلها رغم جوعها وشهيتها المفتوحة التي يفسرها بنيانها القوي، وفشلت كل محاولات "المتر" لتهدئتها واسترضائها، وكانت تتعمد إهانته بتجاهله تمامًا وهو منحنٍ إلى طاولتنا، يبرر موقفه بكلام خائب من عينة "ماخدتش بالي.. أنا افتكرتها عايزة حضرتك في حاجة" و"أصلها مش زبونة للمحل ومتوقعتش إنها تتصرف بالشكل ده". قامت إلهام زهقًا وتحركت في اتجاه الحمام ولم أجد طريقة لصرفه إلا بقبول اعتذاره...

ولما عادت بدا وكأنه يلاحقها ويجاوره مساعده الذي كان يحمل صينية فوقها آنية فضية يتصاعد منها البخار محاطة بكمية لا بأس بها من فوط تجفيف الوجه والأيدى وأكياس المناديل المعطرة، انحنى "المتر" بتزلف فور جلوسها وأمر المساعد بوضع الآنية والفوط والمناديل ثم انصرفا، رفعت إلهام غطاء الآنية وبأطراف أناملها شدت فوطة مبللة بالماء الساخن دعكت بها يدها، ثم ألقتها بإهمال فوق الطاولة، بعدها ظلت تتأملني باستياء وأنا آكل كأنها تتعجلني، وأفرغت عدة طيات من المناديل المعطرة مسحت بها يدها ووجهها، ثم تشممت يدها وقالت

بقرف: ريحتها زي وشه! ابتسمت وجففت يدي وأنا أطلب الحساب وصوتها يصلني بقوة: إوعى تسيب لهم ولا جنيه واحد "تِبس". أومأت بالموافقة وأنا أخرج محفظتي لكنها غافلتني واختطفتها مني ووضعتها في حجرها حتى يأتي الحساب، وعندما حضرت "الفاتورة" تركت النقود المبينة بها دون إكرامية واحتفظت بالمحفظة حتى غادرنا المحل وأصبحنا داخل السيارة، داعبتها وأنا أدير المحرك بالمفتاح وقلت لها: سيبك من كل اللي حصل وقوليلي إنتي مفكرتيش لحظة إن دي ممكن تكون إشارة عشان ترجعي ترسمي زي زمان لوحاتك المثيرة برضه إلى حد ما. أصدرت صوتًا مستهجنًا بأنفها، وأطلقت في وجهي سيلاً من البذاءات، ولم تهدأ حتى سمعتني أضحك بشدة، فاعتبرت ما قلته من أجل استفزازها وليس رأيًا في فنها، وعند نصف المسافة ورأسها مرتكن إلى وسادة الرأس الملحقة بالكرسي الأمامي قالت (وكنت أظنها نائمة): عارف يا مصطفى أنا بعد ما اتخرجت وشديت رحالي إلى القاهرة.. شفت أيام أسود من قرن الخروب قبل ما أتعين طبعًا.. لا مش اللي في دماغك.. المتحرشين واللي عايزين مني حاجة مش بمزاجي كنت باكيِّل لهم وأخليهم بعد كده مايهوبوش في طريق أنا ماشية فيه.. أنا قصدي الفلوس وقلتها.. العيشة على وجبة واحدة في الـ ٢٤ ساعة.. اللَّف طول اليوم على كعب رجلي.. المشاكل مع أصحاب الشقق والشقوق اللي كنت بأسكن فيها.. ولمَّا فتح عليَّا ربنا شوية.. سكنت مرة في شقة على سطح عمارة من عمارات وسط البلد.. شقة حقيرة طبعًا.. انكسر عليَّا إيجار ٣ شهور.. صاحب الشقة كان في نفس الوقت صاحب العمارة

وكان عنده "جاليري" في شارع هدى شعراوي.. لا مش فنان طبعًا أصله بياع "روبابيكيا" زي أغلب اللي فاتحين جاليرِهات دلوقتي.. صاحب الشقة طِلع لي بنفسه عشان ياخد المتأخر من الإيجار أو يطردني، لقاني بأرسم، شد كرسي وقعد يتفرج، بعد كده عمل إن قلبه عليَّا، وطلب مني بخبث إنى أقايضه أديله لوحات يعرضها بدلاً من الإيجار المتأخر، ولوحتين شهريًّا مقابل أجرة السكن.. بصراحة وافقت.. كان الحل الوحيد اللي يخليني أبقى في المكان.. بس هو كان قصده حاجة تانية.. كان شايفني ترزية هدوم مش فنانة.. بقى يطلب مني لوحات على مزاجه ومزاج زباينه.. أرسم فواكه وزهور على كل لون يا باتستا.. ورغم كل ظروفي الصعبة.. ورغم إن الحاجات اللي طلب مني أرسمها.. كنت أعرف أرسمها بصباع رجلي الصغير.. ورغم إني عشت ستة شهور بدون وجع دماغ الإيجار في أول الشهر.. سبت السكن وهجيت.. ما استحملتش أشتغل بدماغ بياع الروبابيكيا.. ممكن تكون شايف اللي باقولهولك ده عبط.. بس أنا كده وحافضل كده.. دماغي وسخة.. تفتكر يا مصطفى بعد كل البهدلة اللي اتبهدلتها في حياتي.. حيرجعوني عن اللي في دماغي شوية جهلة ماعندهمش فكرة عن الدين أصلاً؟!

هذه هي إلهام التي أنا في طريقي إليها الآن.. تجاه أقصى نقطة بمنطقة الهرم.. حيث المراسم التي تجاور بعضها بعضًا كصوامع الخزين، وتؤذي العين بتشابهها المربع.. وحدات من طابق واحد متماثلة في الطول والعرض والارتفاع.. وفي التصميم المعماري والديكور.. وحتى قطعة الأرض الأمامية الممنوحة لكل مرسم لكي يزرع فيها الفنان ما

شاء من نباتات.. يزرعونها نباتات بعينها كأنهم كلفوا بستانيًّا واحدًا العناية بها.. هذه المراسم خصصها أحد رجال الأعمال للفنانين في تلك المنطقة حتى تجاور مشروعاته الترفيهية والاستهلاكية وتبيض وجهها.. مساحة المرسم صغيرة ولاتصلح لشيء غير الرسم.. المعيشة والاستضافة صعبة جدًّا فيها.. ويغادرها الفنانون عند انتصاف الليل، ثم يعودون في اليوم التالي انصياعًا لشروط العقد التي تحرم عليهم المبيت فيها وإلا طردوا منها..

هدأت من سرعة السيارة ودخلت في الممشى الطويل حتى آخر سلسلة الوحدات حيث مقر إلهام.. الذي يعد آخر مرسم بالمنطقة وخلفه حلقات من السلك الشائك وصحراء مترامية.. كان الباب مواربًا على غير العادة، ورغم ذلك رننت الجرس ثم خبطت بقبضة يدي على وسادة الباب الخشبية، لم تخرج ولا صوتها الهادر شفطني من الخارج، اعتقدت أنها في الحمام أو تُعد وجبة سريعة في مطبخ المرسم المتواضع، دفعت الباب ودخلت فوجدتها جالسة على الأرض ببنطلونها "الجينز" المبقع بالألوان الذي تعمل به وبنفس الـ "تي شرت" الذي يجعلها أقرب إلى شكل نجمات السينما عندما يؤدين أدوار الخادمات، ساقاها وفخذاها كانوا على هيئة متوازى أضلاع في فراغه تضع مج "النيسكافيه".. سحبت الكرسي الخشبي العريق وجلست قبالتها، لم تنظر تجاهي ولا تكلمت، تجولت عيناي في المكان بحثًا عن آثار لعملية السرقة فلم يلفت نظري شيء.. حوامل اللوحات كما هي تزاحم المكان وعلب الألوان ومجموعات الفرش على الأرض، وغير معقول أن يسرق

اللص قاعدة "التواليت" أو المنشر الخشبي أو غلاية الشاي أو البوتاجاز المسطح ذا العين الواحدة الذي تزين به المطبخ، سألتها: هو إيه اللي اتسرق؟ قلبت شفتها وهي تنظر إليّ لتجيبني بسخرية: هو البعيد اللي هو حضرتك.. بقيت أعمى خلاص؟.. وحتى لو كنت انطسيت في نواضرك.. مابتسمعش؟ انتهت ونظرت تجاه الركن الذي تضع به الـ "DVD" الذي أهديته لها عند استلامها المرسم. ابتسمت وأنا مستهين بالسرقة وبضآلة قيمة الـ DVD وقلت: فداك يا جميل.. أجيبلك أحسن منه ودلوقتي حالاً.. نظرت إليَّ مليًّا وأحد كفيها يخفي أنفها وشفتيها ثم قالت: والله ماليك زيّ.. أنا المفروض أرقِيك عشان ما تتحسدش.. هو أنا جايباك عشان الـ DVD؟ قوم يا حيلتها عشان أوريك إيه اللي اتسرق. نهضت وهي تشير إليّ بالقيام وتبعتها حتى الجزء الذي به الحمام والمطبخ.. كانت قد استغلت الحائط الذي يفصل بين هذا الجزء والصالة وصممت مكتبة صغيرة من عدة رفوف ودولابًا بنفس طول وعرض المكتبة لملابسها.. أوقفتني أمامها.. المكتبة لم تمس.. باب الدولاب مكسور من جهة المزلاج من عنف الجذبة.. هذه المرة لم أقدر على إعلان استخفافي رغم حقارة المسروقات.. بضع ملابس مستعملة وDVD.. الله يخرب بيتك يا إلهام.. جذبتني من يدي وهي تقول بسخرية: طبعًا حتقولي حاجيبلك غيرهم.. تعالى بقى أوريك المقرف في الأمر. عادت بي إلى الصالة حيث لوحاتها المتراصة على الحوامل، وكنت أتوقع ذلك فهدفها من زيارتي أن تريني إبداعها الجديد، كانت الرسومات فعلاً جميلة.. لوحات عارية لفتيات يواجهن

العالم بشجاعة.. رسومات بالزيت على "توال" ومقاسات كبيرة لا تقل عن ٢ متر × متر ونصف.. وكانت هناك إضافة أو اثنتان على كل لوحة.. الصدور المكتنزة العارية مخبأة بمهارة بصديريات تخصها وملصقة بلاصق شفاف بمهارة.. والفروج والأرداف محتجزة خلف "كيلوتات" بنفس اللاصق.. وكانت هي في تلك اللحظة تنظر إلى اللوحات وإلى وجهي وتنقِّل النظر بيننا، أشرت إلى أحد الكيلوتات وقلت بخبث: جميل اللون البمبي ده.. إنتي اشترتيه إمتى؟ قلبت شفتيها بسخرية ثم ابتسمت وهي تقول: إوعى تكون فاكر إن أنا اللي عملت الهبل ده. قلت دهشًا: أمال مين؟ أجابت وهي تزوم: الحرامي بعد ما خد الـ DVD والهدوم يظهر كان عنده وقت يتفرج فيه على اللوحات.. وماهنش عليه يسيبهم عريانين.. ضحى بكل "الأندر وير" بتاعي وغطاهم ومشي.. ضحكت معها حتى طفرت الدموع من عيوننا، غير أنها بعد بضع لحظات غرقت في نوبة بكاء طويلة يصحبها نحيب مؤلم، صبرت عليها وحايلتها وخففت عنها حتى استطعت بجهد فائق إقناعها بتبديل ملابسها والخروج.

دخلت السيارة دون أن تنبس بكلمة، وجلست بجواري كطفلة متمردة عنيدة ستفاجئ والديها بمصيبة ما، وكنت كمعتوه يخاطب نفسه وأنا أحدثها عن معجبيها الذين ينتظرون معرضها في لهفة، وأناشدها المقاومة والاستمرار وأرغِّبها في الحياة، وكنا في تلك اللحظة فوق كوبري الجامعة، حولت وجهها من نافذة السيارة وقالت بعصبية: اخرس.. لو كملت وعظك الخرا ده هانزل وأرميك إنت وعربيتك في النيل. أطعتها وسكت مبتسمًا، بعد فترة قصيرة قالت بزهق: هو أنا معزة.. مش

تقوللي سايقني ورايح فين؟ أجبتها دون التورط في النظر تجاهها: حنعدي على وسط البلد نتمشى شوية وبعدين نتعشى. لم ترد، لكني اعتبرت سؤالها بمثابة رسالة تنبئني أنها بخير، قلت ممازحًا: إيه رأيك يا حبيبتي لو تسيبي لوحة بالإضافات اللي حطها الحرامي وتعرضيها.. النقاد هينبسطوا قوي وهيقولوا "كولاج" هايل، شخرت بأنفها وقالت: كولاج يا جاهل ده كده يبقى اسمه عمل مركب.. وبعدين عايز تبقى خفيف اقفل شباك العربية لحسن تطير. سكت مرة أخرى، ويبدو أن سكوتي في هذه المرة أعطاها انطباعًا بضيقي، لأنها تنهدت وتكلمت بلا سخرية: أنا اللي مضايقني يا مصطفى إن الحرامي كمان اعتبر اللي مرسوم قلة أدب.. يعني العامة كمان انتقل لهم الفيروس ده.. مع إن طول عمر الفلاحين والناس العاديين كانوا بيمروا جنب الجداريات الفرعونية وبيشوفوا الأجساد عارية ومبيفكروش فيها بالشهوة والدونية دي.. وده خلاني أفكر أأجل المعرض أو ألغيه. استأت من أفكارها الجديدة فأحببت أن أذكرها بشيء قالته لي من قبل: فاكرة لما كنتي بتحكيلي عن العصر الفيكتوري وبتقوليلي إنهم كانوا بيغطوا أرجل التربيزات بالمفارش الطويلة عشان كانوا شايفين إنها بتثير الرجال وبتفكرهم بسيقان المرأة؟.. اعتبري إننا دلوقت في الزمن ده وحنتخلص منه ونبقى زيهم دلوقت. فرت من شفتيها ابتسامة وقالت : يخرب بيت عقلك إنت افتكرت دي إزاي إذا كنت أنا نسيت؟ آه العقل الباطن بتاع سيادتك رجعك للمراهقة أيام ما كنت بتستخبى تحت الترابيزة وبيداريكم المفرش إنت والخدامة ولاّ بنت الجيران. ابتسمت ولم أنطق حتى لا تتمادى في خيالاتها. وصلت إلى ميدان التحرير وركنت سيارتي في قلبه، ثم دخلت بها شارع محمد محمود الذي كثيرًا ما كانت ترجوني أن

أسير بصحبتها بجوار جدرانه المرسومة بالجرافيت، غير أن عددًا من المسئولين المخبولين قد أزالوا الرسم الجرافيتي المعبر عن الثورة بحجة تنظيف الميدان، واستفز ذلك فنانين كثيرين فأقبل عدد كبير من الفتيان والفتيات يرسمون على الجدران من جديد، وكانت هناك جموع كثيرة تراقب بحماسة وبالقرب منها مجموعات أمنية تتظاهر بعدم الاهتمام. زادت حركة إلهام وهي تتفحص الرسومات الفطرية ثم بدأت في إلقاء ملاحظاتها إلى الفنانين الشباب بهدف تحسين الرسوم والخطوط، وكان بعضهم يستجيب أو يناولها الفرشاة لتعديل ما رسمه، وبينما كانت إلهام تقترب مني وهي تطلب التوجه إلى الجدار المقابل، قاطعتها سيدة عجوز، عيناها تطفران بالدموع، وصوتها مختنق ضعيف كأنه خارج من بئر عميقة، أفلتت السيدة أناملها فظهرت راحة يدها المضمومة على صورة فوتوغرافية، ووسط كل هذا الضجيج الهادر والحماس سمعنا همس العجوز الواهن قويًّا شجيًّا عفيًّا، وهي تطلب من إلهام إعادة رسم صورة ابنها الشهيد على الجدار بعد أن محا صورته الأغبياء الذين أرادوا تنظيف الميدان والشوارع المحيطة به، ثم قالت أيضًا إنها كانت تمر كل يوم بالشارع فتراه وتدعو له ثم تعود إلى بيتها راضية، وأنها تفتقده الآن، أخذت إلهام الصورة وقبلتها وتحركت بسرعة وجذبت سُلمًا ارتقت عليه وناولها الشباب الأدوات وعلب الطلاء وبدأت في رسم خطوط الوجه بدقة يصاحبها استحسان المشاهدين، وبدا في تلك اللحظة أنه لا أحد قادر على قهرها.

obeikandl.com

البهجة تحزم حقائبها

obeikandl.com

وكأن الحزن بداخل قدر من الفخار يفور ويغلي، وسدادة فوهته الفلّين تهتز وترتج تحت ضربات بخاره المكتوم، ثم عجزت السدادة عن الصمود فطارت مخترقة الهواء، وخرج الحزن بقوة يضرب ويبطش حتى خلى القدر تمامًا.

هذا قريب جدًا مما حدث أيامها.. كانت شقة أسامة بمنطقة الزمالك، التي كانت آنذاك من أرقى أحياء المدينة، من الشقق الفسيحة ذات الأسقف العالية التي كانت مثار حسدنا جميعًا، نحن زملاء دراسة أسامة وأصدقاؤه الحميمون، أبناء الطبقة المتوسطة التي يسكن أغلبها في مناطق شعبية وبداخل مبانٍ شعبية ذات غرف ضيقة وأسقف واطئة وحمامات بلدي، حتى لو فرجها الله على أحد منا وثبت فوق عين الحمام البلدي "قاعدة حمام رخامي إفرنجي" قد لا تجد لباطن قدميك موطأ تضعها فيه، غير ثنيها ولفها حول جسم "التواليت" أو مدها على استقامتها وركنها على باب الحمام الخشبي لضيق المسافة، في شقة أسامة وحدها ثلاثة حمامات، اثنان لأهل المنزل ملحقان بغرف النوم وواحد مخصص للضيوف والأغراب بقرب المدخل، وهناك حمام رابع بلدي للخادمة والطاهية بفوهة كبيرة في الأرض محاطة بشكل نعلين كبيرين من حصى البلاط للارتكاز عليها في أثناء القعود لقضاء الحاجة، وعلى يمين الجالس خرطوم للتشطيف من الكاوتشوك مدلى من صنبور المياه، وبجواره كوز صفيح للتنظيف الشخصي وتنظيف الحمام قبل الخروج. شقة أسامة التي كانت على طابق كامل ومساحتها تساوي مساحة أربعة بيوت من التي ننحشر فيها،

كان يعيش فيها أسامة فقط مع والده وأمه وأخته الصغيرة رحاب، وكانت تزورهم أحيانًا شقيقتا أسامة المتزوجتان المقيمتان بعيدًا وبصحبة أطفالهن، بمجرد الدخول من باب الشقة يهل عليك الكرم من كل جهة.. يبدأ بكرم مناخي.. هواء منعش لطيف صيفًا.. وطقس دافئ شتوي.. وكرم بصري بالمساحات الكبيرة والديكورات التي تجلو عينيك.. ثم ترحيب مبالغ فيه من أمه وأبيه اللذين لا يكفان عن إدخال المشروبات وأطباق الحلو إلينا ونحن نذاكر مع أسامة.. ولكونه ذكر وحيد.. كان دلوعة العائلة كلها، ولأننا أصحابه المقربون كنا في نفس المنزلة أو أعلى منها قليلاً لغلاوته عندهم.

أخته الصغرى رحاب كانت لا تتعدى الثانية عشرة من العمر وتدرس في أولى إعدادي بينما كنا في بداية السنة النهائية من الدراسة الجامعية.. كانت لطيفة ومرحة.. تتحرك بهمة ونشاط في أرجاء المكان بيدانتها الملحوظة التي كانت تثير غمزاتنا في عدم وجود أسامة، داعبتها مرة وناديتها بلقب "دبدوبة".. استشاطت غضبًا ودمعت عيناها وهي تنسحب من أمامنا، جرى وراءها أسامة يطيب خاطرها، وطالبني الأصدقاء بترضيتها فدخلت إلى حجرتها وطبطبت عليها وجلست أحكي لها طرفًا ونوادر حتى عادت إلينا ابتسامتها.. كان وجهها يضيء وابتسامتها تتسع وهي تقف في استقبالنا خلف الخادمة التي تفتح لنا الباب، سعيدة بأصدقاء أخيها الذين يسعدونه، تسلم علينا بأطراف أصابعها ثم تنتظر حتى ندخل غرفة معيشة أسامة التي نذاكر بها، وتتهادى في العمق حتى تناديه.

كل شيء كان جميلاً في هذا البيت، إطارات الأرابيسك المعلقة على جدران الطرقات وبداخل الغرف وفيها وجوه وملابس من الماضى لأسلاف أسامة، أو رسومات لمناظر طبيعية في ريف مصر رسمها فنانون أجانب، الثريات والمصابيح، الصندرة التي تعلو بعض الغرف وتحوي الملابس التي أهمل لبسها أو العاديات التي خدش بعضها أو الزائدة عن الحاجة، النوافذ الضخمة والشرفات العملاقة التي كنا نطلع منها على البرج الذي يقابلنا ويفصلنا عنه مساحة كبيرة سقفها من زوايا الحديد المبطن بالصفيح المتعرج.. وتستخدم كجراج للسيارات.. ذلك البرج الذي كان يسكن فيه نخبة مصرية من كتاب وفنانين ونجوم إذاعة وتليفزيون.. كنا أحيانًا نترقب طلتهم حين يخرجون إلى شرفاتهم الملحقة بغرف نومهم على طبيعتهم تمامًا بملابس النوم ودون "مكياج" ينظرون في الفراغ ولا يبصرون رؤوسنا وعيوننا الصغيرة التي تتطلع بانبهار إلى أعلى حيث يقفون ونهم بتحيتهم لكن أسامة يوقف أيادينا في نصف المسافة حتى لا يتزعجون. في بداية العام الثالث في الجامعة نفسها والكلية ذاتها، جاءنا الخبر الصاعق بوفاة أخته الصغيرة رحاب، هرعنا من فورنا إلى منزله، كانت صلاة الجنازة قد أقيمت عليها وأخذوها إلى مدافن عائلته التي لم نكن نعرفها، وكان عمال "الفراشة" يرصون الكراسي بمدخل البيت في انتظار عودة المشيعين.. وسيدات كثيرات لم يلحقن بالجنازة يرتدين ملابس سوداء أنيقة وينزلن من سياراتهن يبكين بصوت أقرب إلى النهنهة وأبعد عن الصراخ، كن يمسحن دموعهن بمناديل بيضاء ويصعدن على الدرج أو ينتظرن

المصعد، لكن بمجرد دخولهن مدخل البيت ورؤيتهن لكراسي العزاء كنا ينتحبن بأصوات حادة، لم يكن لنا مكان في الشقة فلا أسامة ولا أحد من نفس عمرنا بداخلها.. فقط سيدات متشحات بالأسود يتخفين وراء الدموع ويتحسرن على حداثة سن المتوفاة، تسكعنا قليلاً جيئة وذهابًا أمام المنزل وكنا ندل السيارات التائهة على مكان العزاء، ثم سرنا بمحاذاة "الجراج" وكان هناك شرطي لأول مرة يقف أمامه، ولاحظ صبي الجراج الذي يقاربنا في السن حركتنا الدائبة أمام المكان، وبدا أنه كان بحاجة إلى الكلام من طريق تقربه إلينا، سألنا عن درجة معرفتنا بالقتيلة، وصدمنا اللفظ جدًا مما اضطره للإشارة بيده إلى سقف الجراج وهو يقول بأنها عادت من المدرسة في نصف اليوم الدراسي، وألقت بنفسها من الشرفة وهي ما تزال بملابسها المدرسية وممسكة بحقيبتها التي تبعثرت الكتب منها عند اصطدامها بجمالون السقف.. وأن النيابة حضرت وعاينت الجثة بعد أن رسمت الشرطة خطوطًا بالطبشور حولها.. وأن تلك الخطوط ما تزال موجودة تحد بقعًا من الدم الغامق، كنا في ذهول مما يقوله وكان مزهوًا جدًا بحكيه الذي يبين مدى إدراكه لكل شيء.. ثم أردف أن القتيلة لو كانت من أسرة عادية ما كانت ستدفن في نفس اليوم وكانت ستُجرى تحقيقات مع كل أهلها ويتم تشريحها بالمستشفى العام ثم أضاف بحسد بما معناه.. لأنها من علية القوم تم تسوية هذه الأوراق في دقائق معدودات..

ليلة العزاء التي شاركنا فيها لأول مرة كرجال صغار، وأخذنا نتبادل مواقعنا بجوار أسامة وهو يتصدر بجوار أبيه سرادق العزاء ويسلم على الداخلين وهو يتلقى تعازيهم ويشكر الخارجين.. بدا لنا الأب أكثر ثباتًا مقارنة بأسامة الذي تقلصت مساحات البياض في عينيه وقاربت في شكلها نهايات فصوص الرمان، هذا بخلاف تهاويه في صدور المعزين الأكثر قرابة وحميمية، وفيما بعد تلك الليلة بأيام قليلة علمنا أن سبب الكارثة التي أودت بحياة رحاب، أن زميلاتها في المدرسة كن يسخرن من بدانتها يوميًا ويتعمدن مضايقتها، وأن هذه المدرسة هي ثالث مدرسة تنتقل إليها في خلال عامين هربًا من سخرية الزميلات ومن لمز العاملين والعاملات، وأن كل وسائل "الرجيم" التي كانت تتبعها بإشراف الأطباء كانت تأتي بنتائج عكسية وتزيد من بدانتها، وأن زميلاتها تمادين وزدن في السخرية منها لغياب مشرفة المدرسة في يومها الأخير، مما دفعها بغضب لترك المدرسة والعودة إلى البيت، لتندفع عبر ممر الشقة الطويل دون أن تأبه بمن يناديها أو يسألها عن سبب عودتها مبكرًا أو يتبعها بعينيه عن بعد، ولم تمهل نفسها بالتفكير والتروي بل قفزت عبر الفراغ، وبعد تلك المأساة ظللنا نذهب في أغلب الأمسيات لنذاكر مع أسامة كما تعودنا عدا أمسيات يوم الخميس المخصصة للعزاء حتى يحل يوم الأربعين، كنا متحمسين لإخراجه من حالة الحزن القاسية التي قلبت أحوالنا معه، لكننا لم نقدر على تحمل هذه الأجواء الكابية كثيرًا خاصة وقد كنا في حداثة عمرنا، وبعضنا أو كلنا لم يتواجه مع الشكل القاسي من الحياة بعد، فغادرنا

بيت أسامة واحدًا تلو الواحد، ولعلني كنت آخرهم فقد كنت أقربهم إلى قلبه والمقيم ببيته بعد تلك الفاجعة لا أكاد أغادره إلا ذهابًا إلى الجامعة وبيدي أسامة، أو مرورًا على منزلنا لتغيير ملابسي والحصول على مصروفي الأسبوعي، غير أني في النهاية غادرت بيت أسامة معزيًا نفسي بأن أسامة قد تماسك، غادرته وأنا أكاد أرى البهجة تحزم حقائبها على مشارف الباب وتتأهب للمغادرة.

استلمتني صفاء التي كنت قد غبت عنها كثيرًا بفواصل من العتاب واللوم والتوبيخ غير مقدرة لمحبة أسامة في قلبي، رغم أنه لم يكن غريبًا عنها، فلم تكن صلته بها فقط لمجرد كونها حبيبتي، ولكن لكونها أيضًا زميلته في الدفعة نفسها، لكنها كانت لا تحبه ولا تستلطفه ولا تكرهه، تقول بحياد عنه: إنه طيب وابن حلال لكن انطوائي، فقد كان يفسد مسراتها كثيرًا وأنا أحاول دمجه بيننا خاصة وأنا ألح عليه في قبول دعوتي للخروج معنا لقضاء سهرة في المسرح أو السينما ويعتذر في آخر لحظة ويقلب حالتي الشعورية إلى استياء شديد، وأنتبه على صفاء وهى تتأملني وتتلمظ غيظًا: يعني مش كفاية عزمناه وكنا حنتحمل سكوته زي أبو الهول طول السهرة وفي الآخر يعطلنا ويسبنا نروح لوحدنا! ثم تحدجني بنظراتها وتقلب شفتيها وهي تكمل: لوحدنا إيه؟.. سابلنا الكآبة والقرف!

كانت صفاء لا تتحمل جديته ورزانته وتعتبرهما مظهرًا من مظاهر الأغنياء المدّعين، وكانت مصرة على أنه يرسل لنا رسالة في كل لحظة

بأنه من طبقة مختلفة؛ أغنى وأرقى، ورغم ذلك حزنت لوفاة شقيقته وأدت واجب العزاء مرتين؛ مرة في ليلة الوفاة، والأخرى بعد أسبوعين عندما أخبرتها بأن شقيقتيّ أسامة وعائلتيهما موجودتان بكاملهما ومن الأفضل حضورها حتى يتعرفوا عليها، بصفتها مقربة مني وهناك مشروع ارتباط بيننا، سخرت في البداية من حجتي وقالت: ارتباط إيه اللي حيعرفوه وسط الدراما اللي هم فيها؟ ثم استجابت لرغبتي وأتت، كان جل غضبها مني أنا.. تعتقد أن حزني أكبر من حزن أسامة، وأنني أصطحب هذا الحزن كلما التقينا، وأنها أصبحت عاجزة عن التواصل معي.

بعد شهر واحد من الوفاة ارتفع مستوى السكر في دم أم أسامة، وكانت مريضة به منذ سنوات، وتسبب جرح بسيط بكعب قدمها في احتجازها في مستشفى، وتخلى التماسك والصمود عن والد أسامة فسقط من طوله فجأة، وهو يشرف على ابنتيه وهما توضبان الغيارات والملابس تمهيدًا لزيارة الأم في المستشفى، ثم مات الأب في يوم الوقوع نفسه، ودفن وأقيم له سرادق عزاء ضخم دون علم زوجته المحتجزة بالمستشفى، وزاد هم أسامة وهمنا جميعًا وعدت أغدو شبه مقيم في شقتهم مع بعض الأصدقاء المقربين، ثم حدثت مشادة كبيرة بيني وبين صفاء التي زرعت بداخلي الإبداع، وكانت كل يوم تقرأ خواطري وتثني عليها وتعدني بمستقبل متميز في الكتابة، كأن بيدها مفاتيح المستقبل، وتلومني على دخولي كلية التجارة بدلاً من كلية الآداب، متجاهلة أني لو كنت التحقت بكلية الآداب ما كنت عرفتها ولا

التقيت بها ولا أصبحنا عاجزين عن البعد والهجر، لامتني على انقطاعي عن الكتابة وحضور المحاضرات، وعلى الجو الكابي الذي أنا مصرّ على التقوقع بداخله، كانت تهاجمني يوميًا باتصالاتها في المنزل أو في شقة أسامة، لكن بعد الظروف الأخيرة لم تجرؤ على الاتصال بي في بيت أسامة، وأعتقد أن هذا من أكبر أسباب اشتباكها معي، ولما صالحتني بعدها بعدة أيام طلبتُ منها أن تصحبني عند زيارة أم أسامة في المستشفى، نظرت إليّ ولم تعلق.

صعدت بها إلى شقة أسامة وتركتها مع شقيقتيه بضع دقائق، ودخلت غرفة أسامة أأهله للزيارة، كيف يكون مبتسمًا وحاضر البديهة، وأن يتماسك عندما تسأله أمه عن صحة أبيه، وموعد عودته من السفر، فلحسن الحظ كان الأب كثير السفر إلى محافظات مصر لمتابعة أعماله، وكانت الأم متفهمة لظروفه، وسبق أن طلبت منهم عدم إزعاجه ولا إخباره بأن الطبيب قرر بتر إحدى ساقيها للضرورة. دخلت الشقيقتان مع صفاء الغرفة التي أجلس بها مع أسامة واتفقوا على مجموعة الأكاذيب التي سيقولونها للأم حتى لا تتدهور حالتها، ثم ذهبنا إلى المستشفى القريب من المنزل، وكان ذلك يومًا فارقًا في حياتي.

توطدت علاقة صفاء بشقيقتيّ أسامة وصارت تزورهما في بيت العائلة وفي بيوتهما الخاصة، وخفف ذلك من على كاهلي عبء التبريرات، وصرنا كلما التقينا نتبادل الحكايات أنا عن أسامة ووسائلنا في التخفيف عنه، وهي عن مخاوفها بما سيحدث للأم الملكومة في ابنتها

عندما تعود إلى البيت، وتفجع بما حدث لزوجها، كما كانت تحدثني كثيرًا عن شقيقتيّ أسامة اللتين صارتا تعاملانها كأنها أختهما الثالثة.

نظرت البهجة طويلاً في المرآة التي بمدخل المنزل، ثم لملمت أشياءها وخرجت بعد أن أغلقت الباب بدوي قنبلة، ماتت أم أسامة بيننا وهي تتأهب لمغادرة المستشفى، وبنتاها بعد تردد جنوني تخبرانها بوفاة الأب حتى لا تصدم بالخبر بمجرد اجتيازها عتبات البيت.

الذي حدث لأسامة في تلك الفترة القليلة مجموعة من المآسي تليق بالدراما الهندية، في مدى أربعة شهور تبدل حال أسامة تمامًا، فقد سمته وسكونه ودهشته وترك العنان للحيته وشعره، وأهمل الانشغال بتناسق ما يرتديه أو مناسبته حتى للطقس السائد، ولازمناه كأصدقاء حميميين حتى دخلنا الامتحانات وانتهى العام الدراسي، وفي العطلة السنوية سافرت صفاء إلى نيوجرسي بأمريكا، حيث ختها المتزوجة والمقيمة هناك كي تقف بجوارها في مرضها، وأرسلت لي من هناك ثلاث رسائل، الأولى تبلغني فيها بوصولها والطرائف التي واجهتها في أثناء الطيران، والثانية تطمئنني على أختها، والثالثة تذكر فيها بالتفاصيل كل ما أعجبها وسرها في تلك الولاية، ثم عادت بعد إعلان النتيجة نجاحنا كلنا، عادت صفاء بوجه آخر غير الذي سافرت به، في كل نزهاتنا وخلواتنا كانت تعدد لي بانبهار كم الأشياء العظيمة التي في أمريكا، وكنت أهمل التعليق، كما قالت لي بأنها أخبرت أختها بكل تفاصيل علاقتنا، وبالوعد الذي قطعناه على أنفسنا بالزواج عقب

التخرج بمجرد الاستقرار في أي عمل، وكان زوج أخت صفاء يمتلك هناك محطة وقود، يعمل بها بعض المصريين والأجانب، وقد رحب زوج الشقيقة هذا – على حد قولها - بأن نتزوج في القاهرة ثم نسافر إلى أمريكا ونعمل بالمحطة التي يملكها بصفة مؤقتة حتى يتدبر لنا عملاً جيدًا ومناسبًا، نظرت إلى صفاء التي كان كلامها مايزال يتدفق بحماسة وقلت كلمة واحدة: حابقى أفكر. وبعد أن أوصلتها إلى بيتها، فكرت فعلاً كما وعدتها وأنا أسترجع علاقتنا منذ بدايتها، وكيف حببتني في الحياة وزرعت في قلبي عشق الكتابة، وكيف كانت تحلفني بالله والمقدسات كافة، بأننا حتى لو – لا قدر الله - تركنا بعضنا لأي سبب، وما عاد لأحدنا تأثير طيب أو إيجابي على الآخر، ألا أنساق وراء موضات الشباب الحالي وأهاجر إلى أي بلد غربي، وكذلك لا أسافر للعمل في البلاد العربية، فأنا موهوب على حد قولها، وأكتب باللغة العربية ولقراء عرب، ويجب أن أكافح هنا حتى أتبوأ مكانة متميزة.

الآن تأتي صفاء لتغريني بأمريكا متجاهلة تمامًا ما كانت تتفوه به عن المشاركة والكفاح والتضحية، غير أني كنت حاسمًا جدًا ورفضت فكرة السفر من أساسها وقررت عدم مناقشتها مرة أخرى، بالرغم من أنه في حقيقة الأمر كان غير فارق معي السفر إلى أمريكا أو زنجبار حتى، ولا كان عندي حلم الكتابة والسعي وراءها كما كانت تتمنى صفاء، كم كبير من العند والصلف امتلكني، وكلما ألحت وضعفت وبكت صفاء وكلما ازداد نشاط الصديقات والزميلات في تقريب وجهات النظر كلما أوغلت في رفض فكرة السفر، وقضت صفاء عامًا كاملاً في انتظاري

بعد التخرج حتى انتهيت من قضاء فترة الخدمة العامة الإلزامية، لم تكف خلالها في أن تسوق عليّ الأصدقاء والزملاء وأنا كجلمود الصخر لا أتزحزح عن موقعي، كنت أراهن رهانًا خاسرًا على أنها في آخر لحظة ستتراجع عن فكرة السفر، وتستسلم لإرادتي فأصبح سيد الموقف إن شئت سافرنا إلى الغرب وإن شئت بقينا في الوطن، كنت متشعلقًا بالدراما المرئية العربية وأكاد أتصورها وهي في طائرة المغادرة تتوسل إلى الطيار كي يستدير ويعاود الهبوط على أرض المطار، وتندفع من باب الطائرة تكاد تتعثر في درجات السلم المعدني المتحرك لتلقي بنفسها بين أحضاني.

لكن ما حدث في غضون بضعة أسابيع كان على النفيض تمامًا، حمّلت أحد أصدقائنا المقربين رسالة حاسمة لي، خلاصتها أنها ستغادر مصر بعد شهر بالتمام والكمال . بدوني أو معي . وأنها تنتظر ردي في خلال ثمانية وأربعين ساعة، وبعد مرور المهلة التي منحتها لي، جاءني نفس الصديق برسالة أكثر حسمًا مختصرها يقول إنها كانت قد اتفقت مع أختها على العودة إلى أمريكا وبيدها زوج، وإنها من هذه اللحظة تخليني من وعودي وتحل نفسها من أية التزامات كانت فيما بيننا، وتخبرني لمجرد العلم بأنها ستعقد قرانها قريبًا وتغادر.

الذي جاءني هذه المرة بصحبة الرسول زميل آخر، وكان معهما أسامة الذي بدا متوترًا ومرتعشًا وفي حال أسوأ بكثير من حالته في غضون الحوادث المنكوبة التي باغتته في السنة الأخيرة، كان الصديق يتكلم

والزميل يؤمّن على كلامه وأسامة في شرود يماثل شرود المريض النفسي قبيل النوبات العنيفة، تأكد الصديق مرة واثنتين وثلاثًا من أن لا رغبة لي في السفر مع صفاء وبالتالي في الزواج منها بالطريقة التي تريدها، وأنه ما عاد يفرق معي بمن ستتزوج أو من هو بديلي الذي سيصاحبها في بلاد الغربة، ثم تحول الحديث إلى منحى آخر، عندما بدأ في ذكر بعض ظروف أسامة الصعبة، كأني غير ملم بها ولا أحفظها غيبًا، وأخيرًا قال ما توقعته في أخريات هذه المحادثة الطويلة، أسامة سيصطحب صفاء في سفريتها ويتزوج بها إن سمحت لهما بذلك، ابتسمت ونهضت وأنا أربت كتف أسامة وأقول: أنا موافق تمامًا فأسامة نعم الاختيار.. والوحيد القادر على إسعادها.. وهي الوحيدة القادرة على إخراجه من البئر السحيق الذي رماه فيه القدر، وقلت كلامًا كثيرًا من هذا القبيل وحضنته بينما كان يبكي بشدة.

ظللت سنوات أضمد في جرحي هذا، حتى وصلت إلى قناعة بأن قرابين الحزن التي قدمها أسامة في ذلك العام، جعلته يستحق صفاء أكثر مني، وفي أول خمس سنوات من زواجهما وهجرتهما لم أر أيًا منهما، وسمعت أنه جاء إلى مصر عدة مرات في زيارات خاطفة، ثم قابلته بعد ذلك بتدبير من صديقنا المشترك وتعاملنا كما كنا نتعامل في السابق قبل دخول صفاء بيننا، واقترح الصديق أن نقضي بعض أيام المصيف في الإسكندرية تحديدًا، وفعلاً ذهبنا إلى هناك وصارت هذه النزهة عادة شبه سنوية، كلما جاء أسامة إلى مصر يقضي شهرًا إلا بضعة أيام مع صفاء، ثم يجعلها تسافر قبله ويقضي بقية أجازته معنا.. صيفيات

كثيرة مرت ولم تأت سيرة صفاء على الإطلاق فيما بيننا ولو حتى في حديث عارض، و إذا ما جاءت سيرة أطفاله ووجب الحديث عن أمهم يقول عنها: أم العيال، وإذا ما رن هاتفه المحمول وتعرف على رقمها وهو ينظر إلى شاشته يرتبك، ثم يهرول حتى آخر نقطة بالشاطئ، مديرًا لنا ظهره لكي لا نراه وهو يتكلم، كنت أبتسم سعيدًا وأقول في نفسي: عشر سنوات زواج يا أسامة ولازلت تتعامل معي كأنك سلبتها مني!

يقولون كناية عن تبدل الحال "جرت مياه كثيرة في النهر"، بينما النهر الذي جمعني بأسامة وصفاء ظل راكدًا منذ ليلة زفافهما، توقف الزمن لدي عند اللحظة التي أقلعت فيها الطائرة في انتظار أن تتوسل صفاء الى الطيار، وكتبت وكتبت ولم أغادر مصر مطلقًا كما أشارت عليّ، ورغم ذلك اقتحمت عليها وجودها في نيوجرسي على ظهر فضائية من الفضائيات.. كنت أتحدث عن أيام الجامعة ومسراتي ومراراتي ولم يكن ببالي أني انكأ جروحًا غائرة.

رن محمولي وظهر على شاشته رقم أسامة القاهري، قلت له: حمد الله على سلامتك، باغتني صوتها الذي أحفظ ذبذباته منذ أكثر من خمسة عشر سنة، قالت إنها في القاهرة وأسامة مازال عالقًا في عمله في أمريكا، وأخبرتني بأنها قرأت لي وأنها فخورة بما أنجزته ثم طلبت مقابلتي - إن لم يكن لدي مانع - فأعطيتها عنوان المقهى وانتظرتها في ظهيرة يوم شتوي، كان الجو غائمًا بعض الشيء لكنه دافئ، وقفت سيارة في نهر الشارع وهي بداخلها تتطلع إلى جانبي المقهى، أشرت لها

فاعتدل السائق بسيارته حتى يوازي الرصيف، كانت ما تزال في السيارة حين فتح لها السائق الباب، نزلت بصعوبة والسائق يمسك بيدها ويسندها ويقربها مني وأنا أتقهقر حتى أجلسها بجواري على الرصيف، صرفت السائق وهي تشكو من آلام بظهرها تتابع علاجها عند طبيب قريب من المنطقة، ثم طلبت كوبًا من الينسون وزجاجة مياه معدنية وأعادت ما قالته عن فخرها بإنجازي، سألتها هل قرأت شيئًا مما كتبت؟ فأجابت ببساطة: لا، ابتسمت، "فقد أهديت لأسامة بعض كتبي في زيارات سابقة وكنت على شبه يقين بأنه لن يعلمها بأمرها أو يجعلها تقرأها"، استنكرت ابتسامتي وقالت إنها ستبحث عنها في المكتبات، كنت منشغلاً بتأمل حجابها الذي أخفى لون شعرها ولمعته وبتفاصيل وجهها الذي لم يتغير وبجسدها الذي ظل على حاله، سألتني وهي تبتسم عن أسباب عدم زواجي؟ شممت تشفيًا في سؤالها، فاندفعت أخبرها بأن هذه المعلومة غير صحيحة وأنني تزوجت مدنيًا أكثر من مرة، قاطعتني وقالت إنها تفكر في الاستقرار في مصر بعد أن كبر الأولاد، قلت لها بأن لدي عرضًا بتدريس الأدب في إحدى الجامعات الأوروبية، ثم صار الحوار على هذا المنوال حتى شربت مشروبها، حضر السائق لكي يساعدها على القيام وصاحبتهما من على مسافة حتى دخلت إلى سيارتها وأشارت إليّ بيدها مودعة، ظللت بضع دقائق جالسًا ووجداني مرتبك كأني لم أنفصل عنها دقيقة واحدة، فوجئت بصديق حميم يجر كرسيًا ويجلس بجواري، قال بعد أن تأملني قليلاً: من هذه السيدة التي كانت تجلس معك؟ ابتسمت وأنا أجيبه: صديقة

قديمة كنت سأتزوجها في أحد الأيام. ضغط على يده متعجبًا وهو يقول: كنت ستتزوج هذه المسنة!

انتبهت إلى الأيام والسنين التي تكسرت فجأة من وقع هذه العبارة، وانتشيت لحظات بتأثير فكرة أن كبر السن يظهر على النساء أسرع من الرجال وظننت أني نلت ثأري، فقلت له ممازحًا: انت صدقت! ثم نظرت إلى عامل المقهى وطلبت منه أن يحضر لنا طاولة، فقد كانت هناك مباراة ثأرية في لعبة الطاولة بيني وبين الصديق، وكنت حريصًا على ربحها فقد كان هناك شعور يغالبني بأن أسامة ربح بجدارة المباراة التي كانت بيننا.

obeikandl.com

obeikandl.com

صابرين

obeikandl.com

obeikandl.com

صابرين الفتاة الضامرة التي لا يتجاوز عمرها الرابعة عشرة، والتي لونتها الشمس حتى بات من الصعب التأكد من لون بشرتها الحقيقي، وأدماها السير حافية في دروب وسط البلد وشوارعها وأزقتها، فتشقق باطن قدميها وتحول إلى شكل خارطة متشابكة الحدود والتضاريس.. فرت في بداية الثورة إلى الجهات المغايرة لجهات الثوار هربًا من الدهس والقتل.. كانت تمر بسهولة من خلال الواجهات الزجاجية المحطمة من الحرائق التي أتت على بعض أكشاك بيع السجائر، لم تتوقف إلا أمام واجهة محطمة لمحل كبير لبيع الملابس، كان البلطجية قد جردوا المانيكانات من الأزياء التي ترتديها، ظلت صابرين تتأملها بدقة لفترة، كان عددها عشر مانيكانات.. خمس سيدات في أوضاع مختلفة، سيقانهن منفرجة أو مضمومة تبعًا لطراز الزي الذي كانوا يعرضونه.. و"بروكات" شعر لونها أحمر وأسود وبنفسجي وذهبي مقطعة وممزقة وملقاة بجوار أقدامهن.. وثلاث مانيكانات لرجال في أوضاع استعراضية، رؤوسهم مرسومة وملونة بأحبار كثيفة سوداء وذهبية بديلاً عن الشعر الصناعي، ومانيكان لطفل وطفلة يبدو أنهما كانا ممسكين كل منهما بيد الآخر، وحاول أحد السارقين وهو ينزع ملابسهما أن يفض تشابكهما، فجذب يد مانيكان الطفلة بقوة وخلعه من الكتف.. كانت اليد ملقاة على أرضية "فاترينة" العرض وسط الزجاج المتناثر.. وكانت صابرين تتأمل بعمق عين المانيكان الطفلة التي تكاد تناشدها أن تعيد لها ذراعها.. وكانت دوريات الشرطة ماتزال في عنفوانها تسير بسرعات عالية في الشوارع، وأبواقها تدوي وعليها جنود يطلقون رصاصهم في الهواء، والشارع بين كر وفر من الثوار والأمن،

والطوب والرصاص المطاطي يتناثر في كل مكان... لكن كلهم كانوا غير عابئين بها.. كأنها فراغ ..كأنها خيال ..كأنها هواء.. لا أحد نهرها.. لا أحد ضربها.. ولا حتى أرداها أحدهم قتيلة.. بحذر نظفت مسافة آمنة لقدميها بعد أن صعدت إلى "فاترينة" العرض.. كان طول قامة المانيكان الطفلة يماثل طول قامتها، ولم تجد صابرين صعوبة كبيرة في إعادة الكتف.. ولما أحست بلمعة حنان تطل من عيني الطفلة المانيكان وتظللها، احتضنتها بشدة وزادت رغبتها فيها، وهمّت بحملها والفرار بها بعيدًا.. غير أن أفكارًا سوداء تغلبت عليها.. قد يمسك بها الجنود ويتهمونها بسرقة المحل... قد ينتزعها من يدها أحد المارة ويعطيها لأولاده.. أو قد تحلو في عين أولاد الشوارع القساة شمامي الكلة الذين يطاردونها ليل نهار، ويسلبونها منها، ثم يغتصبونها بقسوة، كما لم تفلت منهم في بداية خروجها إلى الشوارع، ربتت صابرين على لعبتها، ثم تركتها وغيرت طريقها، وعادت إلى الميدان وقد راودتها فكرة أن تعود في الليل لتأخذها كي تبيت معها.

كان البصل وزجاجات الخل البلاستيكية والكمامات تنهال من الشرفات منحًا من السكان للثوار، وكانت الشمس مازالت عفية عصية على الدخان الراغب في طمس أشعتها، وواجهها الميدان العريض الممتلئ بالغضب والثورة.. لم تشعر بالخوف ولا أحست بقلق.. فقط اتسعت حدقتاها من الدهشة وهي ترى ما لم ترَ بعينيها قط في الميدان.. اشتباكات دامية وهرولة جماعية في كل الاتجاهات، وقذائف لهب ورصاص، وجرحى وشهداء يتساقطون على الأرض، ويحملهم

زملاؤهم باكين لأقرب تجمع به طبيب أو سيارة إسعاف.. وقفت صابرين خلف أحد المتاريس الحديدية التي نصبها الثوار حماية لهم من جنود الأمن المركزي، كانت الفتيات السافرات والمحجبات ممسكات بحجارة صغيرة، ووجوههن محتقنة غضبًا يدققن بها على الحديد بوتيرة واحدة لبث الحماسة في الثوار، ردًا على جنود الأمن المركزي المصطفين أمام سياراتهم يدقون بعصيهم على دروعهم البلاستيكية قبل معاودة هجماتهم على الثوار.. وكان نغم الفتيات يتصاعد بصوت أقوى وأجمل مفجرًا الحماسة في القلوب، بعكس الصوت المتراخي لدقات رجال الأمن على دروعهم لأنه دق وظيفي روتيني يفتقد الحماسة.. بعد تردد وعندما أحست بانشغالهن عنها، أمسكت صابرين بقطعة حجر صغيرة وزاملتهن في الدق على عمود السور الذي استطاعت يدها الوصول إليه.. وعندما انسحبن أمام الهجوم المتوحش، كانت بينهن.. ولما اشتد عزم وأداء الثوار وتمكنوا من الميدان، كانت معهن ووجدت بعضهن يبتسمن لها ويربتن رأسها، ويفسحن لها مكانًا بينهن على الرصيف الحجري وهن يلححن عليها للقعود، وقبلتها إحداهن على خدها، وضمتها أخرى إلى صدرها بقوة، كادت دموع صابرين تقفز من عينيها واضطرب قلبها الصغير، كانت هذه اللحظة مختلفة.. واستثنائية، فلم تتأفف واحدة من رائحتها وملابسها القذرة، ولا ابتعدن عنها بقرف كما كن يفعلن، هل لأن العراك "بهدلهن" أيضًا وغير التراب ألوان ملابسهن الجميلة، وأحالهن الغبار الملتصق على وجوههن إلى شبيهات لها؟

كانت هناك قطع من الحجارة البيضاء الكبيرة تحيط بدماء الشهداء في أكثر من مكان بالميدان.. وكلما هدأت الأمور، كان الثوار يتجمعون حولها ويرفعون أياديهم بالدعاء، بفضول اقتربت من أقربهم إليها، كانت الدماء لامعة وبراقة، وكان أحمرها القاني يبدو لونًا سماويًا خالصًا لا ينتمي لدنيانا، أتت فتاة ووقفت بجوارها وربتت كتفها، رفعت صابرين رأسها إليها وفاجأتها عينا الفتاة الدامعتان، همست صابرين للفتاة: أغسل الدم بالمية يا أبلة؟

لم ترد الفتاة وإنما أمسكت بيد صابرين وقادتها برفق بعيدًا عن المكان.. قالت لها وسط دموعها بأن هذه الدماء مقدسة ويجب تركها حتى يعرف العالم ما الذي فعله بنا هؤلاء الوحوش، حل الظلام بالمكان سريعًا وبدا الميدان غريبًا.. أصحاب المحلات والدكاكين أقفلوها على عجالة وفروا.. والثوار تمكنوا من الميدان وأغلقوه تمامًا في وجه السيارات، والحكومة أطفأت مصابيح الميدان.. لم تكن هناك إلا بقع ضوء ضئيلة لسيارات شرطة محترقة وواجهات محال ومطاعم تشتعل فيها النيران..

عندما تمكن الجوع من "الشلة" التي تصحبهما.. ذهبت برغبتها مع هند لإحضار أية مأكولات، لحسن الحظ كان محل الكشري القريب من الميدان قد ضاعف كمياته ولم يأبه للمعارك وكان الطابور ممتدًا أمامه.. حملت مع هند ما قدرتا على حمله، وعادتا إلى الميدان من جهة يحميها الثوار وبعيدة عن البلطجية.. أكلت صابرين معهن وظلت بقربهن ومن هذه اللحظة لم تفارقهن.. حضرت معهن كل المعارك

القاسية والدامية.. وبكت على جروحهن وحسدتهن عليها وفى أحيان كثيرة كانت تفكر وهي بعيدة عمن يعرفها منهن بأن تجرح نفسها كي تصير مثلهن، لكنها كانت تتراجع، في كل مرة تتراجع في آخر لحظة، وأدهشها ذلك كثيرًا، لكنها لم تجد له تفسيرًا، كما كان يدهشها كثيرًا أنها ما عادت تهتم بالطفلة المانيكان، وما عادت ترغب في العودة لأخذها، أو حتى الاطمئنان إلى أنها مازالت موجودة.. في أثناء انشغال أصحابها عنها في النهار بالهتاف والتجمع في حلقات للحديث في السياسة، اشترت موقدًا صغيرًا وهيأت عدة لبيع الشاي في أكواب من بلاستيك، لم تكن تطلب مالاً، وكانت تقبل ما يلقى أمامها من نقود، وتسير مثل بائعة محترفة بصينيتها الصغيرة الموضوع عليها أكواب الشاي، تخترق الجموع بمهارة لتهدي من تلمحها متعبة أو مرهقة كوبًا من الشاي الدافئ دون التفات إلى نقودها.. كانت في الصباح تبدو نشيطة بقدر أكبر من قدرتها...وفي الأحداث الكبيرة تجمع الأحجار وتناولها للمتظاهرين.. وأحيانًا تلقيها بيدها الصغيرة فتقع في منتصف المسافة.. وكلما سمعت باحتياج شخص لحاجة من خارج الميدان كانت تسرع ملبية الطلب، ولا تأخذ مالاً نظير خدمتها إلا بإلحاح من صديقاتها الجديدات.. بدأت تحب الليل كثيرًا.. فكلما توغل بدت الهدنة آمنة أكثر.. تنصت باهتمام لحكايات البنات عن ثورتهن وميولهن السياسية، أو مشاكلهن مع الأهل المرتكنين إلى السلبية لأعوام لا تُعد.. لم تكن تعي معظم ما يقلنه.. لكنها كانت تحب سماعه.. وعندما تنهك غالبيتهن وتلتمسن ساعة من النوم، كانت تنام بالقرب منهن على أطراف الخيمة، عندما تنتبه لها هند أو لميس كانت تناديها

للنوم بجوارهن، وعندما يدركهما النوم تأسى لنفسها ثم تنام ووجهها تجاههما.

اعتادت على سماع هتافات المتظاهرين وأصبحت قادرة على تمييز أصوات الغضب والفرح والغيظ.. وشاهدت لحظات فرحهم الشديد وهم يصرخون ويقبّل بعضهم بعضًا، لخبر تم بثه في التلفاز أو رسالة على شاشة المحمول.. وتعرفت على إحباطهم عندما يتبينون أن الخبر كاذب، فيعودون أكثر إصرارًا على التحدي، ويشعلهم الغضب حركة، وتدوي الأغاني الحماسية من سماعات الميدان كافة، وتحدث اشتباكات على الأطراف، ثم يهبط الليل فجأة فيهدأون ويسكنون...

بدت لصابرين الحياة كأنها أبد.. والميدان كأنه وطن.. وحل المغرب وسط الإضاءة الخافتة للميدان فأحاله ليلاً في باكورته.. والحركة الدءوب لم تهدأ.. ثم علا صراخ الجميع.. وارتفعت الأجساد عن الأرض وهبطت من حضن لشخصين إلى حضن عام كبير.. بعضهم يبكون.. وآخرون يضحكون بنفس الدموع.. والقبلات تنهال دون حواجز تابوهية.. وكانت صابرين في قمة دهشتها من حجم هذه الفرحة الغامرة.. وعلى يقين متشكك بأن أحدًا ما سيكذب الخبر، كما يحدث في كل مرة، وأنهم سيعودون لحماسهم وهتافهم.. غير أنه حتى الصباح كان الميدان يتزايد بالجموع المقبلة من كل مكان، والتهاني تزيد وتصبح أكثر حرارة، وخبر رحيل الرئيس الفاسد أصبح يقينًا.. ظلت تبكي وهي تجول في الميدان ولأول مرة منذ الأحداث باتت تتحرك بصعوبة خوفاً من دهسها تحت الأقدام.. وعبرت الأسلاك الشائكة حول حدائق

الميدان بحثاً عن صديقاتها لكن عينيها اصطدمتا بوجوه أخرى غير الوجوه، عائلات ومعها أطفالها بملابسهم الجديدة كأنهم في ليلة العيد، والأضواء سطعت في كل الميدان، والأطفال الصغار يلعبون وكلما اقتربت منهم يبتعدون، وحين رأت أخيرًا هند ولميس، حملتاها "من على الأرض" وانهالتا عليها تقبيلاً، بكت على صدرهما وهما تقولان لها مبروك..

لكنها عادت طفلة وتشبثت بهند رافضة النزول، اندهشت هند جدًا واتسعت عيناها، فـ"تخدلت" يد صابرين وانكسرت، أنزلتها هند وانحنت تسألها بدهشة: إنتي مش مبسوطة يا صابرين.. خلاص مشي الرئيس!

قالت صابرين وفمها يتلقى ويتذوق دمعها: مبسوطة.. بس متضايقة عشان مش هاشوفكم تاني، ربتت لميس كتفها وداعبت شعرها وقبلتها هند وهما تقولان كلامًا كأنهما متفقتان عليه: طبعًا حنجيلك ونطمن عليكي.. مش إحنا خلاص بقينا أصحاب؟

نظرت لهما طويلاً كأنها تختزن ملامحهما في ذاكرتها وقالت: حتيجوا بس مش حتشوفوني.. زي زمان لما كنت بأعدي عليكم وأكلمكم ولا تشوفونيش..

دوت أصوات صواريخ الألعاب عالية فانتبه لها الجميع واختفت صابرين بين أقدام المحتفلين.

obeikandl.com

obeikandl.com

الزيارة

obeikandl.com

في ليلة شتوية بردها قارس جئتكم, غمرتني أضواء الغرفة وأزعجني صخب الاستقبال فبكيت، وعجبت منكم فكلما خرج صوتي أليمًا باكيًا، جاذبًا معه أحشائي، علا ضحككم وزاد سروركم.

أنا الذي ما مستني يد من قبل، تلقفتني الأيدي الخشنة والناعمة، النحيلة والغليظة، ومست وجهي شفاه عديدة، واحتضنتني أجساد كثيرة، وظللتني الروائح المتباينة، ثم دثرتموني بلفائف وأقطان.

وما إن لامستني أمي واحتضنتني قليلاً، وأسكن قلبي دفء صدرها، وبعد أن هدأت ولزمت الصمت، عز عليكم أن أبقى في كنفها بعض الوقت، فجأة انتشلني الرجل صاحب المعطف الأبيض، الذي كانت يده أول شيء تعرفت عليه في دنياكم هذه، وأودعني عنبرًا زجاجيًا بين أقراني القادمين الجدد، بينما من الخارج ظلوا ينظرون إلينا عبر الزجاج وهم يشيرون لنا بأياديهم، كنت قادرًا على معرفة مكان أهلي بينهم، لكني كنت غير قادر على التلفت والإشارة، كان جسدي الصغير عصيًا على طاعتي وتنفيذ إرادتي، فعدت للبكاء، وتحركت شهية رفاقي للنواح تضامنًا معي، وكونوا ما يشبه الجوقة الموسيقية التي يجيد كورالها ترديد نغمات البكاء بمختلف درجاته، وحين زاد صخبنا وضجيجنا بعد أن غادرنا الأهل ومن بصحبتهم من جيران وأصدقاء؛ أطفأوا الأنوار حولنا فخفتت أصواتنا شيئًا فشيئًا، بعد أن خُدعنا وأحسسنا بالأمان لمّا ظننا أننا عدنا إلى عالمنا الذي جئنا منه.

تكلمنا بعضنا مع بعض, ليس بلغتكم تلك التي كانت تدوي في آذاننا مثل صوت الطبل، ولا بالصوت العالي الذي تجيدون إصداره، ولا بالإشارات التي تصحب كلامكم، بل بلغتنا نحن التي تعتمد علي الحس ودقات القلب، كان منا من هو مبهور بهذا العالم الذي ولجناه فجأة، وكان منا المتفائل، وكان منا المتشائم، وكان منا الخائف والمذعور، وكنت متحيرًا ومتهيبًا، أحيانًا أسعد بما أنا عليه وفي طريقي للدخول إليه، وأحيانًا أخرى تصبح غاية آمالي أن أعود إلى ما كنت عليه، وكان منا من يظن أننا سنبقى بهذا المكان زمنًا طويلاً، وأنهم سيتركوننا بلا متابعة ولا رعاية لكن سرعان ما عاد الضوء يغمرنا.. وجاءت الصحبة نفسها تزورنا وترقبنا، وأحيانًا تمر علينا وتتلمسنا، ثم بدأت أحس بجسدي ومتاعبه, وأتعرف على أعضائي بدون مسمياتها، وعندما زهقت من تلك الحضّانة السخيفة، صرفوا أغلب رفاقي واستبقوني مع قلة منهم، ثم غمروني بضوء أبيض مستفز زمنًا طويلاً، وعاودني الرجل بمعطفه الأبيض.. حملني هذه المرة بمودة أنستني عنف القبضة التي جذبني بها في بداية تعارفنا، ثم نظر إلى عيني وابتسم وربت ظهري برفق، لكني لم أكف عن البكاء إلا عندما تلقفني حضن أمي.

في الشارع لأول مرة عندما واجهت ضجيجه ودخانه، تمنيت لو صادفت رفاقي المتفائلين وعدت أسألهم عن رأيهم في هذا العالم الجديد، لكن الحلول البديلة هدأتني بعض الوقت - حضن أمي وحنانها.. رقة والدي وعطفه واهتمامه.. فرحة كل من رآني واحتضنني وقبلني من الجيران والأقارب - وحين مر الأسبوع الأول لوجودي بينكم,

ملأتم مكاني الجديد وجودًا حميميًا، وكنت أستعيد صوركم في ذهني وأحاول التعرف عليكم وأنتم تحدّقون إليّ، وبت أعرف أن من يمد يده ليحملني، وتتخلى أمي عني طوعًا لساعديه هو من أقاربي، وكنت أراوغهم وأحيرهم، فأحيانًا كنت أقبل أن يحملوني، وأحيانًا أخرى أجزع، وأدفعهم عني بالبكاء، وبينما أنا مشغول بالأضواء الملونة والبالونات الضخمة وعدو الأطفال العمالقة من حولي، باغتني صوت دق الهون والطقوس التي ابتدعتموها لاستقبالنا، فبكيت ولم أتوقف... ونمت مهمومًا.

أيامًا كثيرة مرت بعد تلك الليلة، وأنتم موزعون الهوى بيني وبين ذلك الجهاز الذي يبث صورًا متلاحقة، حاولت أن أفهم كيف تختزلون هذه الدنيا الواسعة في هذا الجهاز، العالم الضخم الذي لم أتعرف عليه بعد في هذا الجهاز الصغير.. رغم أن حدسي ينبئني بأنه أكبر بكثير من عالمي الصغير، كيف تختزلونها في هذا الجهاز الصغير؟ وتظلون تلاحقون صوره بلهفة وشوق، ويصبح شاغلكم الشاغل.

لقد تعرفت على العالم الكبير المدهش القاسي اليوم، كنت قد سعلت أمس، وسهر أبي وأمي بجواري، ولمحتهما يدمعان فتوقفت عن البكاء، لكن السعال غلبني، أنا اليوم في الشارع للمرة الثانية، أسمع أصواتًا كثيرة لا أميز أغلبها، وأرى مئات من العلامات والشارات والوجوه والأعلام، وتخطف بصري أضواء تهبط من السماء إلى الأرض، والسعال مازال يشتد، وأنا محتمٍ بحضن أمي، بينما وجه أبي يبتعد

ويقترب كلما كثر الفر والكر، حتى هاجمتني روائح فظيعة استطاعت النفاذ من كل مادثرتني به أمي، لم يعد صوت السعال يخرج مني، وبدأت في التباعد عن عالمكم، وبدأت أصواتكم تخفت وصوركم تتلاشى، وأنا أهرول عائدًا إلى عالمي.. ثلاثون يومًا هي مدة وجودي بينكم تجعلني محقًا في أن أقول لكم، كنت ضيفكم فلم تحسنوا استقبالي، عذرًا يا أبي ويا أمي هذا قدري فلا تجزعا.. لعلي أخطأت التوقيت.

obeikandl.com

obeikandl.com

آخر ليالي الصيفية

obeikandl.com

كان ميعاد خروجهن يتفق تمامًا مع موعد خروجي من المدرسة، وكان يفصلني عنهن طابقان، فأنا أقيم في الطابق الرابع وهن يُقِمن في الطابق الثاني، كثيرًا ما كنت أجد نفسي بينهن بقامتي القصيرة، وجسمي الضئيل وحقيبتي المدرسيَّة الضخمة التي أعلقها على الظهر، كان يحلو لهن مداعبتي بلمس شعري، أو بجذبي من حزام حقيبة الظهر، أو بمحاصرتي وتقبيلي عنوة، كنت أضيق جدًّا بتلك المداعبات السمجة من بنات كبيرات يرتدين البلاطي الخفيفة الناصعة البياض وعلى رؤوسهن قبعات من نفس اللون.

كان صوت "النيرز" الأجش الذي يصلنا قويًّا رغم المسافة التي تبعدنا عنها، هو الذي يجعلهن يخفضن من أصواتهن وهن يعدون على الدرج ويفلتنني منهن، انتقل إليّ منهن الخوف من تلك "النيرز" المتجهمة كبيرة السن، التي ترتدي دائمًا زيًّا أزرق اللون وقبعتها رغم أنها من نفس لون الزى إلاّ أنها كانت مميزة بنجمة نحاسية في مقدمتها، وكنت إذا ما لقيتها مصادفة أثناء الصعود أو النزول أكاد ألتصق بالجدار وأحذر أن تلتقي عيناي بعينيها، كانوا أكثر من ست عشرة فتاة، يخرجن كأسراب الطيور، يتجهن إلى المبنى المقابل حيث يستلمن وردياتهن وكنت وحيدًا، أخرج من البيت وأعبر شوارع وميادين حتى أصل إلى مدرستي.

سكان بيتنا بمن فيهم أبي وأمي كانوا يتضررون من وجودهن بالمنزل نفسه. أسمع الجارات اللواتي يسكنَّ بجوارهن أو فوقهن يشتكين إلى

أمي من ضجيجهن ودلعهن ليلاً وقلة احترامهن لشروط الجيرة، وأسمع أبي عندما يصحبني إلى الحلاق ويأتي الحديث إلى سيرتهن: يلعن اليوم الذي سكنا فيه تلك الشقة اللعينة كما كان يطلق عليها، بينما الحلاق يطرقع بمقصه في الهواء وهو يستحثه على الكلام: شفت منهم حاجة وحشة يا حاج؟ يستغفر أبي ويعلق بأنه لن يظلم أحدًا، ثم يعقب بزهق: منظرهم مش مريحني وخلاص.

كنَّا صغارًا جدًّا في المدرسة العتيقة، وكان من أكبر أحلامي آنذاك أن يشتري لي والدي "ترمسًا" لحفظ المياه مغطىً بكوب من البلاستيك الشفاف كباقي زملائي. كان والدي يعتبر هذه الأمنية لمجرد إعادتها عليه مرة أخرى "ميوعة" فيومىء إلى أمي ويهمهم بكلام يحمل أكثر من وجهة نظر، مضمونها كلها الخوف عليّ من التخنث، ولم أكن أطلبه تقليدًا للأطفال المياسير، لكن كانت صنابير حمامات المدرسة المعلقة في جدران الحمامات الخارجية لكب نشرب منها أو نغسل وجوهنا.. كل الصنابير كانت تعلو يدب حتى وأنا أشب على قدميّ، وتجعلني أتوسل إلى التلاميذ الطوال كى يفتحوها لي وأمد بوزي لأشرب فتُغرق المياه المندفعة وجهي وصدري ومريلتي، هذا لو لم يتساخف أحد التلاميذ ويدفع برأسي إلى الحائط أو يسخر من قصري بأقوال ساديَّة جدًّا.

كانوا يتكلمون عن حبهم للبنات، عن بنات الجيران بالذات، وأحيانًا يتحدث أحدهم عن حبه للمعلمة الشابة التي التحقت بالمدرسة حديثًا، وكنت أسترق السمع إليهم ولا أجرؤ على الاقتراب، وغالبًا ما

كان أحدهم يلمحني فينهرني، ثم يبعدونني بحجة أني صغير، مع أننا كنا في نفس العمر.

أجمل بنت من بنات الطابق الثاني كانت تلوك بفمها الملون حلوى النعناع ولمحتني وأصرّت أن تعطيني واحدة، كانت يدها مشرّعة نحوي وأنا أتراجع بظهري حتى لمستُ الحائط وزميلاتها يضحكن، وهي تزداد إصرارًا، وتلمع أسنانها من فرط الابتسام، وبينما أخفي وجهي بيدي، دفعت بحبة النعناع إلى فمي، حاولت أن ألفظها، لكنها قالت كلمة واحدة ألجمتني: "عيب". وظبطت نفسي مستمتعًا بطعم النعناع في فمي وببسمتها التي خيل إليّ لحظتها أنها طاقة من نور لم أرَ مثيلاً لها من قبل، وتلك كانت لحظة فارقة في طفولتي، بتُّ أتلكع في النزول حتى أراها، فتلمس شعري، وإذا تأخرتْ أظل ساكنًا حتى ألمحها تنزل على السلم وهي منشغلة بتسوية شعرها وملابسها، ورغم انشغالها عني وتخطيها لي كأني فراغ، كنت أرجو الله ألاَّ تراها "النيرز" فتؤنبها على تأخرها، وكنت أقسم بيني وبين نفسي على أنها لو وبختها أمامي فسوف أشتبك معها أو أخطف قبعتها وأنزع عنها النجمة النحاسية، ولحسن حظها وحظي لم يحدث ذلك مطلقًا ولم أختبر تلك الإمكانية.

صارت لي قصة حب من طرف واحد كأغلب زملائي الذين كانوا متورطين في حب المدرسات أو بنات الجيران، لكني لم أستطع أن أحكيها لأحد، وصار لي وأنا في عمري الصغير في تلك الفترة آلام وهموم. فإن وجد أحد الجيران بقايا طعام أو حقنًا ملوثة أو قطنًا وشاشًا

أتكدر من أبي حين يحكي لأمي عن ذلك، أو عندما يحكي عن خططه مع باقي السكان لطردهن من الشقة. كان أبي أكبر السكان سنًّا، وكان يعتبر حكيم المنزل ولأني كنت أخشاه جدًّا وأعرف عناده، ملأني الرعب من فكرة نجاحه في طردهن، وصرت أتبرع أحيانًا بكلام يحسِّن من صورتهن ونحن متجمعون حول الأكل، كأن أخبرهم بأني حين رجعت من المدرسة شعرت بدوخة فناولتني إحداهن قرصًا من الأسبرين وكوبًا من العصير، وكان أبي في تلك اللحظات يقذفني بنظرات نارية وهو يعقب بسخرية: وليه مارُحتش لحكيم المدرسة يا فالح؟ أو: هو إنت مبتدوخش إلا قدام شقتهم؟ وكانت أمي في اللحظة نفسها تمد يدها تتحسس جبيني كأنها تصد هجمات أبي وتتمتم: الحمد لله مفيش سخونية. ثم حدث أن الفتاة التي اخترتها من كل بنات هذه الشقة، كانت متورطة في الحب دون أن أدري، وكان حبها من طرف واحد، وبشاء القدر أن أكون أحد وسائلها لمعرفة كافة البيانات الخاصة بهذا الحبيب، فهو أحد جيراننا الساكن بشقة في الدور الأرضي، وكان يدرس في كلية طب الأسنان ووحيد أمه، وفي الوقت ذاته كان صديقًا لأخي الأكبر، المقيم بالمدينة الجامعية بالإسكندرية حيث يتابع فيها تعليمه في كلية الحقوق، لم أستشعر أنها مولعة به لخبرتي المحدودة آنذاك، ولكني شككت عندما استوقفتني ذات يوم وكنت عائدًا من المدرسة، وكان هذا توقيتًا غريبًا كي أراها فيه، فقد كانت هذه فترة دوامها في المستشفى، وكانت واقفة بجرأة تترصد قدومي، لأنه بمجرد أن لمحتني أشارت نحوي وثنت سبابتها تجاه صدرها، ففهمت أنها تريدني أن

أقترب منها، وقفتها كانت بجوار سور المستشفى وفي مواجهة شرفة جارنا، وكان في يدها قرطاس من اللب الأسمر وبعضه تختزنه في فمها ثم تلفظ القشرة كالقذيفة، قدمت إليّ بعضه، فرفضت بشدة وأغلقت جيوب مريلتي بيدى حتى لا تسقطهم بداخله، سألتنى عن جارنا ومتى توفي والده، وهل أعرفه عن قرب، وابتسمتْ عندما أخبرتُها بأنه صديق لأخي، وسألتني باهتمام هل تتردد على بيته فتيات من أقاربه أو زميلات من الكلية؟ عقدت جبيني وأخبرتها بأني لم ألحظ أن أحدًا يزوره لا بنات ولا رجال، وخلال حوارها معي كان قشر اللب ينهال على مريلتي فيلتصق بعضه بالقماش، وبظفرها الملون بالأحمر تنطره، وكانت تحل بي نشوة كلما لامس ظفرها مريلتي، ويبدو أن إجاباتي أرضتها لأنها أخرجت من حقيبتها رسالة مطوية وطلبت مني أن أعطيها له في غياب والدته. قبل هذا اليوم لو كانت قد طلبت مني أن أقتل شخصًا ما بالسم لما كنت ترددت لحظة، ولكن في تلك اللحظة رفضت بشدة، ما أدهشها جدًّا، لكنها تمالكت نفسها وابتسمت ونكشت شعري براحتها، وشكرتني ثم عادت إلى مستشفاها، وكانت هناك قشرة من اللب ما تزال عالقة بمريلتي عند الصدر، نزعتها ووضعتها في فمي وتلذذت بطعم ملحها وأنا أصعد السلم، ثم انتبهت لما أفعله فلفظتها بسرعة، ومنذ ذلك اليوم تحولت مشاعري عنها، وغضبت منها بشدة لأنها فضلت صاحب البالطو الأبيض عليّ وغذى زميل لى بالمدرسة هذا الشعور لديّ، عندما قال بحكمة رجل في العشرين من عمره، إنَّ كل الممرضات يتزوجن أطباء، وأنها لا يمكن أن تنظر إلى طفل مثلي لم

يظهر له مستقبل بعد، صرت أستيقظ مبكرًا حتى لا ألمحها في طريقي، وصرت أتنصت بتعمد أكثر على أحاديث أبي وأمي الليلية علَّني أعرف أنه تمكن من تدبير حيلة ما تتسبب في طردهن من بيتنا، ولعل ما رجوته من الله وأنا أبكي يومًا قد أوشك على التحقق، فقد كان يعمل بغرفة العمليات بمستشفاها رجل يدعى عم إبراهيم، وكان قصيرًا ضحوكًا محبوبًا من أغلب أهل الحي، لأنه يسرب لفقرائهم بعض أطعمة المستشفى المخصصة للمرضى، ويمدهم بلفائف القطن الطبي وصبغة اليود والشاش والميركري كروم، كما كان يتوسط في الكشف عليهم بالمجان داخل المستشفى إذا ما مرض أحدهم، كان عم إبراهيم صاحب مزاج ومدمن للبنج الذي يخدرون به المرضى داخل غرفة العمليات، كان يوم سعده عندما يطلب منه الجراح تنظيف وتعقيم غرفة العمليات، فهذا معناه أن هناك جراحة قادمة وكميات بنج بغير حساب، كان في البداية يهرتل في المستشفى من تأثير البنج و"يطرمخ" عليه العاملون ويصير مثار تندر صغار الأطباء، ثم تمكنت منه العادة وأصبح لا ينتظر أن يشم البنج داخل غرفة العمليات، بل صار يحصل عليه من المنبع مباشرة بعدما صنع نسخة مقلدة من مفاتيح المخزن، وكان يدخله خلسة وينفرد بعبوات البنج ويأخذ منها أكثر من كفايته، ثم تغير حاله تمامًا وأصبح مغيبًا أكثر الوقت، يشاكس خلق الله داخل وخارج المستشفى، ويطارد الممرضات حتى باب الشقة التي في بيتنا، ثم خلط بين الممرضات والساكنات، وكانت هذه الطامة الكبرى، فقد جعلت وجهاء بيتنا يذهبون بربطة المعلم إلى مدير المستشفى يشتكون

له مما يحدث ويهددونه باللجوء إلى الشرطة والصحافة، وكان المدير قد رآه أكثر من مرة راقدًا على الأرض مغيبًا بالقرب من المستشفى ونظر إليه من شباك سيارته، ثم أمر سائقه بالسير وتغاضى عن الأمر لأنه كان يستخدمه في أمور خاصة، هذا ما ذكره والدي لأمي أمامي وهو يرمش بعينه عند الكلمة الأخيرة حتى لا أنتبه إلى مغزى كلماته، وظننت في تلك اللحظة أنهم سيخلون الشقة في اليوم التالي، لكنني اكتشفت بعد ذلك أن الأمر انتهى بالاستغناء عن عم إبراهيم بعد منحه مبلغًا ماليًّا يعينه حتى يجد عملاً آخر.

انتهى العام الدراسي وكنت قد نسيتها تمامًا، وصار وقتي موزعًا بين اللعب مع زملائي في الشوارع المحجوبة عن بيتنا وقضاء حوائج عائلتي، وأخطأت يومًا في حسبة ما أو غافلني البقال وناولني باقي الحساب ناقصًا، وثار والدي واشتبك معه ثم استسلم إلى حكم الناس بأنني المخطىء، وظل يوبخني أمامهم توبيخًا مؤلمًا وحرمني من اللعب بضعة أيام، ثم أحضر إلى منزلنا مرة مدرس حساب متقاعدًا، كان من أصدقائه الذين تعرف إليهم في المسجد، وجعلني آخذ درسًا خصوصيًّا لدى هذا الرجل في منزلنا، وصار يتابع هذه الدروس بجدية شديدة، جعلتني أتعجب وأقول في نفسي: أمِنْ أجل جنيهين اغتصبهم مني البقال، يدفع إلى هذا المدرس مبلغًا لا يقل عن خمس جنيهات شهريًّا؟!

وإمعانًا في العقاب خفض من مدة قضائي المصيف في الإسكندرية، كما اعتدنا أخيرًا منذ دخل أخي الجامعة هناك، وبدلاً من أن أقضي

معهم الخمسة عشر يومًا كاملة، جعلها والدي خمسة أيام، ثلاثة ونحن نصحب والدتي إلى هناك، ثم أعود معه إلى القاهرة، وقبل انتهاء الأسبوعين بيومين أصحب أبي مرة أخرى لنقضي اليومين الباقيين ثم نعود معًا، وكنت غير قادر على الاعتراض وتجنبت أمي خوض هذا الموضوع أصلاً وكذلك أخي، وتركوني أواجه العقاب، وفى القاهرة تسربت إلى أبي بعض نسمات الرحمة، فسمح لي باللعب في الشارع ساعتين يوميًّا بشرط ألا أتجاوزهما وأن أعود إلى المذاكرة وحل الواجبات التي فرضها عليَّ المدرّس.

وعاش والدي حياته في عدم وجود أمي، كان يسهر يوميًّا خارج المنزل، إلى ما بعد منتصف الليل أحيانًا، وكنت أغلق الإضاءة وأظل أنظر إلى الشارع الهادئ غائبًا في ملكوتي، حتى ألمح أبي قادمًا من بعيد، وقد هدّه التعب فسار في ظل الإضاءة الشحيحة غير متزن الخطوات، فأندس في فراشي حتى الصباح.

كانت أغلب نوافذ وشرفات المستشفى التي تواجهنا موصدة، وخيوط رفيعة من الضوء تتسرب من بين الشيش والحلوق، وجعلتهم موجة الحر الشديدة التي كانت سائدة آنذاك يمعنون في إغلاق المنافذ ويعتمدون على أجهزة التكييف المنتشرة على واجهة المستشفى كالبرص، في فترتيّ الصبح والظهيرة فقط كانوا يفتحون بعض المنافذ لتهوية الغرف ثم يغلقونها بسرعة، ثم مرت نسمة خفيفة ذات يوم وعاودت المرور واستقرت مدة يومين، وفُتحت شرفة في الطابق الرابع

على استحياء، وأسدل مريض الغرفة ستارة شفافة كالغلالة كي تحجب ما في الغرفة، ثم زاد تدفق الهواء فتحركت الستارة إلى الأمام والخلف ولأعلى في حركات سريعة، ما دفعه لإغلاق المكيف ورفع الستارة تمامًا.

وكنت في تلك اللحظات غارقًا في الظلام أتأمل تلك الغرفة المقابلة لغرفتي بشيء من الاهتمام والفضول، ثم رأيت التي كنت أظنها حبيبتي فيما مضى، تدخل إلى تلك الغرفة وبصحبتها ممرضة أخرى لا أعرفها، ثم رأيت المريض يعتدل في فراشه ويقف ليسلم عليهما، وهنا رأيته يرتدي جلبابًا أبيض عربيًّا ناصع البياض، وحول رأسه ما يطلقون عليه عقالاً أو دشداشة، ثم جلس الرجل وخرجت حبيبة الماضي إلى الشرفة ترسل إلى أسفل نظرة سريعة، ثم تحدق في واجهة عمارتنا وفي الطابق الذي أنا فيه وتجاه غرفتي بالضبط، تجمدت في مكاني بعد أن خيّل إليّ أنها تراني، لكن غادرت الشرفة ثم مرقت ومعها صاحبتها من باب الغرفة بينما انشغل الرجل بشيء على المنضدة التي لا يتبين منها لي غير جزء من حافتها وقدم واحدة، وبدأت تصلني موسيقى راقصة ساعدها السكون في الوصول إليّ، ثم عادت الفتاتان وبيد إحداهن حقيبة من قماش، واختفيتا من أمامي في الجزء المخبأ عني، وعندما ظهرتا مرة أخرى أصابني الوجوم، فقد كانتا ترتديان بدلَتَيْ رقص كاشفتين جدًّا كالتي أراها في الأفلام، ثم بدأتا ترقصان وتميلان على الرجل بالتناوب، وهو يصفق ويدس نقودًا في بدلتيهما من أعلى وفي الوسط وأحيانًا يبدر النقود فوق رؤوسهن، ثم انتشى فخلع عقاله

وتحزم به ورقص بينهن، في تلك اللحظة أصابني كدر شديد، ولم أعد في حاجة إلى النظر تجاه الشارع كي أرى أبي وأهرول مغلقًا الشرفة ومندسًّا في الفراش، أغلقت الشرفة ونمت ولم أعد أفتحها حتى في أيام الحر الشديد، وبعد تلك الحادثة بعدة أيام حان موعد عودتنا إلى الإسكندرية لقضاء اليومين الباقيين بالمصيف، وقضيتهم ثم عدنا كلنا، حتى أخي عاد معنا إلى القاهرة، ونسيت موضوع المستشفى تمامًا كأنه حلم سخيف، وقبل أن ينتهي صيف ذلك العام رأيتهم يخلون الشقة ومعها الأثاث من الطابق الأول في منزلنا، وسمعت من أبي أن نشاطهم اتسع لذا انتقلوا إلى حي أرقى، أقاموا به مركزًا طبيًّا ومستشفىً أضخم، وكأن لعنة أصابت ذلك المبنى فقد ظل مهجورًا لفترة طويلة لا يشتريه ولا يؤجره أحد، حتى التحقت بالدراسة الثانوية، أما الشقة التي كانت تخصهم بمنزلنا فقد أُجرت بسرعة لإحدى شركات الأدوية، وظل هذا الاختفاء السريع للمستشفى وعماله وعاملاته ومرضاه لغزًا كبيرًا في حياتي، حتى كبرت أكثر ومات أبي وانتقلنا من الحي إلى آخر، وفي إحدى المرات التي عاودت فيها زيارة الحي وأنا كبير، قررت حلاقة شعري في المحل الذي كان يسوقني إليه أبي وأنا في المدرسة، كان الحلاق قد كبر ووهن وضعفت ذاكرته حتى أنه لم يتذكرني ولم يتذكر أبي، لكن الغريب أنني عندما ذكرته بالمستشفى تدفقت ذكرياته وأخبرني بأن مالكها وكان يعمل طبيبًا في جهة سيادية.. أبلغته تلك الجهة عن تورط بعض عاملات وممرضات المستشفى في جرائم أخلاقية تحت إدارة المحاسب والمدير الإداري للمستشفى، وبمساعدة إبراهيم عامل غرفة

العمليات الذي سبق طرده، والذى كان يقتنص بعض السياح العرب ويقنعهم بالإقامة في المستشفى في غرفة مجهزة تضارع غرف الفنادق بالإضافة إلى خدمة الفحص الطبي والمضاجعة وبسعر يقل كثيرًا عن أسعار الفندقة، وقد خيرت الجهة السيادية الطبيب مالك المستشفى بين إنهاء نشاطها أو انتظار أن يتم القبض على الشبكة التي تدير العمل في مستشفاه متلبسة فيتم إغلاق المستشفى وفضحها أمام الرأي العام، وقد آثر المالك السلامة فصفى المستشفى وأغلقها ودفع التعويضات المالية اللازمة لغلق ملفها الضريبي والتأميني حتى لايلوث ملف خدمته ولا يخسر الجهة التي يعمل بها.

في الحقيقة لم أصدق كل ما أخبرني به الحلاق فقد كان يفيض بالمبالغات الفجة، ونسيت الأمر كله إلاَّ في بعض الأوقات التي تُعاودُنا فيها ذكرى آخر ليالي الصيفية.

obeikandl.com

obeikandl.com

لم تترك خلفه ورودًا

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

رنين هاتف متصل ومتواصل، في توقيت بعينه يجعلني بلا تخمين أعرف من المتصل ولماذا يتصل، سيستهل المكالمة بضحكة ممطوطة ومبهجة، حينها سأعرف أنه في حالة حب جديدة، وإن بدأ المكالمة بأسئلة روتينية من قبيل "إيه اللي بتعمله دلوقت؟ ياللا ننزل لأني مخنوق ومش طايق الدنيا".. يكون الطير الذي اجتهد طويلاً في صيده قد أفلت وطار، هو يسكن بالقرب من النيل وعقب المساء سواءً كان الوقت صيفًا أو شتاءً يروح جيئة وذهابًا في حيز محدد من كورنيش النيل، أحيانًا ينظر تجاه النيل حيث تربض مراكب الصيد الصغيرة وتتهادى المراكب الشراعية متوسطة الحجم التي يعتليها العشاق، وتمر المراكب السياحية الضخمة وركابها من السياح يشوحون بأياديهم في مودة وحب، وأحيانًا أخرى يثبت عينيه تجاه الشط المحدود حيث الصيادين الهواة وسنانيرهم البدائية والصيادين الفقراء بشباكهم ذات الرقع والثغرات أو متهدلة الخيوط.. يرمق حاملي السنانير برتابة وبسمة استخفاف كلما اصطاد أحدهم سمكة من سمك الباسريا الصغير أو البلطي الذي لا يتجاوز حجمه نصف راحة الكف، ينفعل فقط إذا جذبت سنارة أحدهم سمكة كبيرة أو قرموطًا لزجًا معافرًا يناضل بقوة لقطع خيط السنارة، وسواءً بلعت السمكة الكبيرة الطعم وقطعت الخيط وهربت، أو نجح الصياد في جذبها بسرعة والإمساك بها بفرحة ثم إلقائها داخل سلته القماشية. كان يكتفي

بإحدى هاتين النهايتين الدراميتين، ثم يقيم نصف جسده العلوي وينظف كوعيه المتربين من سور الكورنيش ويعود إلى تجواله.

وكل بضعة أيام له صيدة أو قنصة جديدة، فغالبًا هناك فتاة تسير وحيدة على طريق الكورنيش في الجو الحار أو قارس البرودة، دموعها تسيل على الخد أو تكبت غضبها، وعادة ما تكون لها قصة درامية حزينة تخبر بها حنفي بعد أن يصطادها (كما يحلو له إطلاق هذا التعبير على كل حالة تعرّف ينجح فيها)، وحنفي عاطفي جدًا ويصدق كل ما يقلنه ويغضب جدًا لو أن أحدًا منا كذب قصصهن، أو حذّره منهن، أو أشار إلى الثغرات التي تكاد تمرر فيلاً في حكاياتهن، وأصدقاء كثر انفضوا من حوله لعنفه في لومهم في أثناء الدفاع عنهن، وأكاد أكون أنا الصديق الوحيد الباقي لحنفي والذي يتسع صدره لترهاته، ليس قناعةً مني بما يحكيه عنهن، ولكنّ قدرًا كبيرًا من المحبة له يدفعني دائمًا لعدم إيذائه نفسيًا حتى لو لم أكن أؤمن بما آمن هو به....

فتح لي الباب بمجرد سماع صوت خطواتي تدب على أرضية الدرج الرخامي، قادني إلى غرفته التي في آخر البهو وهي تجاور غرفة أمه المسنة والتي لا تكاد تغادرها إلا للضرورات الحياتية، كانت غرفته صامتة ولفت هذا نظري بشدة، وكان المسجل الضخم ذي الضلفتين الذي أرسله إليه والده في الصيف الماضي مازال قابعًا بجوار المروحة العمودية الدائرة بلا صوت.. جلست على الأريكة التي تواجه سريره،

بعد أن سويت حشوة الإسفنج التي تعلوها كعادتي، أومأت برأسي تجاه المسجل فابتسم رغم شحوب وجهه وقال: مش وقته. أدرت رأسي ما بين أشرطة الأعمال الكاملة لفريد الأطرش، وبين صفحة وجهه التي تعلوها صفرة مختلفة؛ لا هي صفرة اكتئاب لفقد حبيبة ولا هي من تأثير زنقة الامتحانات التي شارفت على الحلول، حتى صوت فريد الذي يعشقه ولا يؤثر في وجداني، والذي كان أول ما يقابلني عند دخولي منزله، ويعلو كلما اقتربت من غرفته، وتصاحبنا أغنيتان أثيرتان لديه في رحلة الحكي؛ "حكاية غرامي حكاية طويلة" لو هجرته فتاته، و"جميل جمال ملوش مثال" إن رشقت السنارة في فم فتاة جديدة.

اختفى صوت فريد الأطرش ولم يقابلني غير الصمت.. وبالرغم من أني كنت متعجلاً لأن أقوم بالزيارة اليومية لوالدي الذي يحتضر في إحدى المستشفيات العامة منذ أسابيع طوال، إلا أنني جلست أمام حنفى مترقبًا في صبر خروج كلماته، أخبرني بعد تردد بأنه اكتشف سيره في أثناء نومه ليلاً، بوغتْ فضحكتُ بقوة غير عابىء بأمه المريضة المسنة الراقدة في الغرفة التي تجاورنا، نظر إليّ نظرة عتاب شديدة، فاضطررت إلى السكوت وتركه يكمل، كانت شقة حنفي في الدور الرابع والأخير من المبنى، وكأغلب مباني هذا الحي الأرستقراطي العريق، كان سطح المنزل الذي يعلو شقة حنفي به أربع غرف غسيل، غرفة لكل شقة تصعد إليها الخادمات في يوم معين في الأسبوع لغسل الملابس ونشرها على الحبال الليفية المربوطة في مواسير معدنية عمودية، وكانت الغرفة التابعة لشقة حنفي مغلقة على كراكيب وبقايا أثاث

وغير مستخدمة في الغسيل، لأن شقيقي حنفي الأكبر والأوسط سافرا عقب قضائهما الخدمة العسكرية بعد التخرج، ولحقا بوالده المقيم في الخليج منذ أعوام طويلة، ولم يعد بالشقة غير حنفي وأمه اللذين لم يعودا في حاجة إلى خادمة مقيمة وأحلا محلها خادمة باليومية تأتي فقط عند الحاجة لتنظيف أثاث الشقة، أما الغسيل فقد تواجدت محال كثيرة لغسله وتنظيفه وكيه، لذا لم يعودا في حاجة إلى غرفة السطح.

في أيام الصيفية وفي أوقات الغروب كثيرًا ما كنت أصعد مع حنفي إلى السطح، حيث يضع سجادة صغيرة في منتصفه بالضبط بناءً على طلبي، ثم نسمع أغنياته المفضلة وبعضًا مما أحبه من غناء، من المسجل نفسه الذي كان يصعد به بصعوبة، وأكتفي أنا بحمل بطارياته والسبرتاية وبعض الأكواب والأطباق.

أحيانًا كنا نأكل بعض شرائح البطيخ أو الشمام، ثم نضع لبه في طاسة صغيرة فوق السبراتاية، ونضيف بعض الملح والماء حتى ينضج، ونتسلى ببصق قشره في أرضية السطح التي يكسوها الغبار، وكانت لحنفي حركة تضايقني كثيرًا، كان يسير حتى نهاية السطح، المستوي تمامًا والخالي من سور يحده في كل الجهات، ثم يجلس مدلدلاً قدميه في الفراغ متفرجًا على النيل والشوارع التي يطل عليها المنزل، ويظل يناديني وهو يربت على المسافة التي بجوار حوضه كي أجلس بجواره، وكنت أصر على المكوث في مكاني واختلاس النظر إليه في خوف، فقد

كانت جلسته هذه تخيفني جدًا، وتجعلني أواصل تهديده بأني سأنزل وأرحل، حتى يستجيب ويعود إلى مكانه بجواري فوق السجادة في موقعها بمنتصف السطح.

ما كان يرعبني ويجمد الدم في عروقي ويجعل حنفي يضحك ويتهمني بالجبن، أصبح يخيف حنفي جدًا، وبت متأرجحًا بين الشماتة فيه والخوف عليه، وظللنا نراجع الأمر كثيرًا، كيف خرج ليلاً دون أن تحس به أمه، وكيف صعد الدرجات المعدنية التي تصل إلى السطح، وكيف سار في السطح بين حبال الغسيل التي تستلزم اليقظة حتى تجنب رأسك من الاصطدام بها! وكيف جلس نفس جلسته على الحافة، وكيف انتبه فجأة ووجد نفسه على هذا الوضع، فسحب قدميه بخوف، وهرول حتى وصل إلى باب غرفة نومه وبكى، خففت من جرعة السخرية التي كنت أعلق بها عليه في أثناء حكيه، بعد أن خففت من مخاوفه بتأكيدي له أن سيره وهو نائم صدفة لن تتكرر، أخبرته بحل بسيط من وجهة نظري، هو أن يركب بابًا خشبيًا قويًا للسطح ويغلقه بقفل صلب ويعطي لكل ساكن نسخة من المفتاح، شرد قليلاً وافترض أن خادمة ما نسيت إغلاقه بعد نزولها، نبهت عليه بضرورة التأكد من غلقه كل ليلة قبيل نومه، ارتاحت نفسه لكلامي، ثم مد يده إلى شريط من شرائطه المفضلة ووضعه في الكاسيت، وهو يتكئ بظهره على الأريكة سعيدًا بجواري.

(٢)

قبيل زيارتي الأخيرة لوالدي، استوقفني صاحب كشك السجائر الذي على ناصية البيت وسألني عن صحة والدي وربت ظهري بحميمية، بضع خطوات أخرى وناداني صاحب محل البقالة واعتذر لي عن عدم زيارته لوالدي في المستشفى متحججًا بغياب عمال المحل وبهجمات مفتشي التموين وطلب مني إيصال سلامه إلى أبي، أما صاحب المقهى الذي يفضل والدي الجلوس عليه، رغم أني رأيته خارجًا من العنبر الذي به أبي في الليلة الفائتة، جاهد وهو يسرع خطواته وصبي المقهى يساعده في النداء عليّ.

أسرعت الخطى تجاهه فقد كان ضعيفًا مسنًا في مثل سن والدي، احتضنني بشدة وعيناه لم تتمكنا من الاحتفاظ بدمعاته وخانته حروفه فخرجت من بين شفتيه مجرد همهمات.

كانت هذه لحظات فارقة أسكنت بقلبي انقباضًا مؤلماً، فرغم أني منذ أكثر من شهرين أعاود أبي صباحًا ومساءً.. وبالرغم من أن صحة أبي تدهورت جدًا مرارًا وتكرارًا خلال سنوات دراستي الجامعية.. لكنه كان دائمًا يعود معافى بأضرار بسيطة، ثقل في اللسان مرة، خطوات بطيئة مرة أخرى، عيون زائغة وتعثر في التذكر ثم يتحسن تدريجيًا، لكن تظاهرة الحي هذه التي قابلتني جعلتني أرتجف وأحاول التخلص من أفكارها السوداء بقصة حبي التي لم تكتمل بالجامعة وقصص حب حنفي المتوالية والمتتالية، وتذكرت أنه اتصل بي من يومين ليطمئن

على والدي، وكنت في مزاج سيء فلم أسأله هل ركب الباب الخشبي للسطح أم دخل في قصة حب جديدة ونساه! ثم وصلت إلى باب المستشفى العام وكان كل شيء قد انتهى.

فترة مرض والدي الطويلة جعلتني أتوقع السيء دائمًا، في أثناء الامتحانات كنت أعتقد أنه سيموت وأني لن أكمل الامتحانات، وأظل أدعو الله وأنا أذاكر بأن يؤجل المصير قليلاً، ثم أطمع أكثر وأطلب تأجيله إلى ما بعد النتيجة لكي أتمتع قليلاً بالنجاح، وأتمادى كثيرًا وأتزلف إلى الله طالبًا منه أن يدعني بلا منغصات حتى أقضي الأجازة السنوية مستمتعًا بشاطىء البحر والصحبة، وعندما تخرجت وكانت تأتيه إحدى النوبات في أثناء بحثي عن عمل، كنت أنظر بعتاب إلى السماء راجيًا بعض الوقت.. آه ما أقسى المرض.. ما أقسى العمر الطويل ومتاعبه.. من يصدق أن فارق العمر بين أبي وأمي أكثر من ثلاثين عامًا، وأن هناك نساء في مثل عمر أمي الآن يتزوجن لأول مرة وتقام لهن الأفراح، ويلبسن ملابس الزفاف البيضاء، أمي التي سكن الروماتيزم في مفاصلها، وأجهدتها خدمة البيت والعناية بأبي، حتى أن أحدًا لن يصدق أنها لم تبلغ الخامسة والثلاثين من العمر بعد، وعندما انتهت لهذه المسألة وأنا في أول مراهقتي وسألتها عن السبب، كانت أيامها ما تزال عفية، لطمتني على خدي وقتها لطمة لم أعهدها منها من قبل أو من بعد.

(٣)

كان سرادق العزاء منصوبًا في مواجهة بيتنا، وأنا بين أخوالي وعمي الوحيد نتصدر العزاء، وحنفي يجلس بجوارنا حزينًا ومتألمًا وإذا ما تقابلت عيوننا ألقى إليّ بنظرة فيها حزن ومواساة، وكلما أنهى المقرىء الربع الذي يتلوه، وأمرني عمي بأن أدور بعلبة السجائر على الحاضرين، كنت أبدأ بحنفي الذي يهز رأسه رافضًا، بينما أصر على أن يأخذ سيجارة ويعلن عن نفسه مدخنًا، فقد تخرجنا من الجامعة وما عاد لائقاً أن يدخن خفية، كنت ألقيها في حجره وعند عودتي من نفس الاتجاه كنت أجد السيجارة ما تزال موضوعة أمامه في الطقطوقة دون إشعال، كنت راغبًا في التعبير له عن محبتي، فقد كان أول المعزّين هاتفيًا، وأول الحاضرين؛ احتضنني بحميمية وتسربت دموعه إلى وجهي، وأصر على الوقوف بجوارنا كي يتلقى العزاء، لكن عمي رفض بقسوة وأشار إليه بأن يجلس بالقرب منا بين المعزّين.

عمي هذا لم أره في حياتي إلا مرات معدودة، كان مقيمًا بالإسكندرية في نطاق مينائها، وكان مقامرًا ومزواجًا كما علمت من أمي ذات مرة، حينما أتى إلى أبي طالبًا نقودًا بصفاقة، وطرده أبي وظل يشتمه وهو في أعلى السلم، بينما عمي يهمهم غاضبًا في أثناء النزول، وأنا أكاد أجن من أبواب شقق جيراننا التي تفتحت وشاهدت هذه المهزلة، وبسبب تلك المشادة فقدت صفاء جارتي وحبيبتي الأولى، فقد قالت لي مرة في خلال إحدى خلافتنا الكثيرة، إن أباها يقول عن والدي إنه لا يعمل

حسابًا للجيران ولا حتى لأهله، صفاء تُعتبر الآن من التاريخ، فلم تعد لي صلة بها، وبعد تخرجي حاولت أكثر من مرة أن تعيد الوصال لكني قفلت منها تمامًا.

في استراحة أخرى بين تلاوة الآيات، سحبت حنفي إلى خلفية السرادق كي ندخن معًا، حسمت تردده بأن ذكرته بأنه أول من علمني التدخين وكيف كانت سحب الدخان المتطايرة تشعرنا بالرجولة، وكيف كان يقف كالديدبان على باب غرفتي أو غرفته حتى أنتهي من دوري، خرجت بسمة بالرغم عنه كدرته جدًا وأحرجته أمامي، فخجلت عندما انتبهت أنه أشد حزنًا مني، ثم بادرته بالسؤال عن الباب، فقال إنه فعل ما قلته له بالضبط، واحتفظ بالمفتاح داخل الحقيبة الدبلوماسية، لكنه فوجيء مرة أخرى بقدميه متدليتان من حافة السطح، وهواء الليل البارد يضرب في وجهه، وأنه في تلك الليلة كاد يجن، شرعت في الضحك لكنه وضع يده بسرعة على فمي، وهو يومىء بغضب تجاه قماش السرادق، وفي محاولة لإسكاتي قال منهيًا الحديث: مالقيتش حل إلا وضع المفتاح في السلسلة اللي حول رقبة أمي، اللي حاطة فيها كل المفاتيح المهمة عندها. استشعرت الخطر ووجمت لحظات في سكون، ثم طلبت منه بإلحاح أن يغادر العزاء فهو في السرادق من قبل صلاة المغرب، لكنه رفض بشدة وجرني بيده تجاه السرادق وهو يقول: أنا مش هاسيبك النهاردة لغاية كلهم ما يمشوا.

(٤)

كنت أتصور نفسي قويًا لأنني تحملت ضربة قاسمة لموت والدي وأنا في بداية حياتي العملية، لكن أمي كان لها رأي مخالف، فقد صرخت في وجهي واتهمتني بالجحود لمجرد أني هممت بفتح جهاز التليفزيون عقب الوفاة بأسبوع، وأقسمت بأني لو فتحته قبل الأربعين، ستترك البيت وتقيم عند إحدى خالاتي، ثم صار كل كلامي من قبيل "الحزن في القلب"، و"الأعمار بيد الله" و"البكاء مش هيرجع الميت"، يثير غضبها أكثر مما يريحها، إلى أن تزامن خبران سعيدان في تلك الآونة: أولهما أني وجدت وظيفة في أحد البنوك الكبرى، وثانيهما نجاح حنفي في مسابقة للالتحاق بوظيفة محاسب في أحد الفنادق الشهيرة.

أمي لم تعلق لكنها نظرت لي طويلاً واغرورقت عيناها بالدموع، وأحسست بها تتمنى لو جاء هذا الخبر السعيد في أثناء حياة الوالد، الذي فرح بشدة هو صديقي حنفي وقال لي ونحن نتمشى على كورنيشه الأثير: من النهاردة لازم نعقل ونحوش عشان نتجوز بسرعة ونكوّن بيت. ضحكت بشدة وقلت له: يعني انت كنت محتاج فلوس عشان تتجوز، هو أبوك مش عرض عليك بعد النجاح يبعتلك أي فلوس انت محتاجها عشان الجواز؟ شرد حنفي قليلاً ثم قال لي بأسى: أبويا دا أنا نسيت شكله تقريبًا.. مش عارف إيه الأب اللي يسيب مراته وعياله كل ده ومايجيش يزورهم.. وكل ما ابن من عياله يتخرج يبعت ياخده جنبه. ثم أضاف وهو يبتسم: بيفكرني بالأندية الكبيرة اللي

بتخطف أشبال الأندية الصغيرة وتسيبها تفشل وتتحرق. جاريته في الضحك وأنا أسأله: هو طلب منك تروحله الخليج؟ قاطعني بسرعة: لأ طبعًا.. ماطلبش ومايقدرش، هو مين غيري هيرعى الحاجة؟ قلت لأخرجه من حالته الاكتئابية التي ظهرت في تعقيبه الأخير: هو إنت لقيت العروسة اللي هتتجوزها ولا هتقضيها بيض وسميط وجبنة مع الأشكال اللي بتقابلها على الكورنيش؟ كانت هذه السخرية دائمًا ما توجعه وتكدره، فرغم أنه مقتدر وعلى قدر من الوسامة لم ينشغل مطلقًا بإحدى زميلاتنا الجامعيات، وكان له ميل غريب تجاه النساء الشعبيات ذات الأجساد الفارعة وملامح الوجه الوحشية، الملابس البسيطة التي تدل على ذوق شعبي هابط كانت تثيره جدًا، لو كنت دارسًا للطب النفسي لقدرت على تحليل شخصيته، لكني زميله في دراسة المحاسبة، وهي لغة رقمية محايدة تجعلني عاجزًا عن تحليله، ورغم أني أقل منه مالاً ومستوى معيشي؛ كانت تطلعاتي دائمًا نحو الفتيات الجميلات ذوات الأصول البرجوازية. هذه المرة ضحك كثيرًا من سخريتي، وهمس في أذني بأنه لأول مرة وجد فتاة أحلامه المناسبة له تمامًا، لكنه لم يبح لي بأي معلومة عنها، ولم أضغط عليه ليتكلم، فقد كنت أتوقع بكائية قادمة سأسمعها متزامنة مع صوت فريد الأطرش.

عندما وضعت النظارة الطبية في أول حياتي الجامعية، ظللت لأيام أسير متعثرًا، أكاد أحس بأن هناك فراغًا أسفل قدميّ.. وأفلتت مني المسافات كثيرًا حتى كدت أصطدم أكثر من مرة بعابرين من أمامي أو سيارات واقفة بمحاذاة الرصيف، هذا بالضبط ما بدأ يحدث معي في

تلك الأيام، أعدت الكشف على قاع العين وقياسات النظارة وأخبرني الطبيب بأن كل شيء على مايرام، لكن هذا لم يخلصني من الهواجس، ثم بدأت أشعر بغصة ألم في حنجرتي، وكنت أتحسس عنقي كثيرًا متخيلاً أن هناك ورمًا غير طبيعي به، وتطور الأمر أكثر ووجدت صعوبة شديدة في بلع الخبز البلدي المغموس في الطبيخ، واستبدلته بخبز إفرنجي رقيق، ثم زاد هلعي عندما عجزت عن بلع قطع اللحم مهما طحنتها بأسناني وحولتها إلى فتات، وكذلك الأرز الذي كنت ألفظه بمجرد مروره في حنجرتي وأنا على وشك الاختناق، وتقيأته أكثر من مرة حتى بعد أن لبيت نصيحة أمي وبدأت في أكله مستخدمًا ملعقة الشاي الصغيرة، لكن هذه الطريقة أيضًا لم تفلح فقد تكوّم بداخل فمي وعجزت عن بلعه فاستخدمت أصابعي في تدليك الحنجرة حتى يتدفق إلى بلعومي، وجحظت عيناي وكدت أختنق، مما أفزع أمي جدًا وهمّت بالاتصال بأحد الجيران لنجدتي، لكني تماسكت ورجوتها عدم الاتصال بأحد، وأقنعتها بأني سألبي هذه المرة طلبها الملح بالذهاب إلى طبيب، وانشغلت أمي بي تمامًا وأخرجها هذا من حالة الحزن الشديد على والدي، وانشغلت أنا بالبحث عن طبيب متميز يحل كل مشاكلي الطبية العجيبة التي حدثت لي مؤخرًا.

تذكرت حنفي وأنا في رحلة بحثي عن طبيب، لم أسأل عنه ولا عرفت أخباره منذ ليلة العزاء، بينما كان يسأل عني بمعدل مرتين في اليوم، عندما أدخل البيت تبادرني أمي "حنفي سأل عليك تاني.. خلي عندك دم واتصل بيه"، ودائمًا أرد بـ"حاضر" ولا أفعل ولا أدري لماذا؟ زهقت

أمي من الإلحاح علي ولم أتوصل مطلقًا لسبب معقول يجعلني لا أسأل عنه أو أرد على اتصالاته، ربما المتاعب الصحية التي حلت بي مؤخرًا! وربما زهقي من حكايات الحب العبيطة التي يحترف الوقوع فيها ثم يطلب مشورتي وأنا أكاد أجن من بلاهته العاطفية! وربما لزوال قسوة أبي وشدته، التي بغيابه الأخير والنهائي تحولت بداخلي إلى شعور كبير يملؤني بحبه وحاجتي لوجوده وإحساس مرعب بفقده، حتى أني ضبطت نفسي أقلده.. أفعل كل شيء مثله.. صرت أنام فترة القيلولة وأصحو على كوب الشاي الحليب الذي كان يفضله، لدرجة أن أمي اختلط عليها الأمر ذات يوم، أتت بكوب الشاي في يد واليد الأخرى تحمل منفضة السجائر ووضعتهما أمامي ثم انتبهنا، ابتسمتُ لأنها ظنتني زوجها، وهي تبسمت في البداية ثم تكدرت وسحبت المنفضة بسرعة وبدا لي ظهرها وهو يبتعد كأنه يترجرج، ليس بفعل الهرولة لكن بسبب البكاء المكتوم.

تحول صوت حنفي القادم من قعر بئر عميق إلى صوت شجي عندما تأكد من صوتي، تواعدنا على لقاء في المساء، بعد أن أخبرته برغبتي في مجالسته ثم الذهاب معًا إلى مشوار يخصني، لم يسألني عن طبيعة المشوار وبدا متلهفًا على اللقاء، وفي الموعد بالضبط كان جالسًا على الدكة الجرانيتية التي يفضلها على رصيف الكورنيش، وهو يحادث بائع الذرة المشوية، الذي بمجرد رؤيتي عاد إلى عربته الخشبية، ثم رفع مروحته الفقيرة من ريش البط وانهمك في تحريكها بشدة على أكواز الذرة الراقدة تحت الفحم المشتعل، اندهش حنفي عندما رفضت

بشدة كوز الذرة المشوي الذي أوصى عليه، ظن العيب في التسوية أو في حجم الكوز وهمّ بتأنيب الرجل، لكني صرفت البائع وهمست له بمشكلتي في البلع، أبدى اهتمامًا غير عادي بما قلته، سألني عن كل تفصيلة، وسحبني من يدي للذهاب على الفور إلى الطبيب، هدأته وأخبرته بأني حجزت لدى طبيب بالفعل والموعد بعد ساعتين، ثم طلبت منه أن يحدثني عن أحواله وعن سعيدة الحظ التي تربعت في قلبه في الفترة الأخيرة.

حنفي الذي كانت طريقتي هذه في الكلام تجعله يحكي ويبكي وهو شارد، عن كل لمسة ولفتة وشاردة وواردة في حياة وأوصاف فتاته، فوجئت بعزوفه عن الكلام عن الفتيات وسيرتهم، تبسمت وقلت له: خدت بمبة يا معلم. خبط على فخذي بحميمية وقال: لا في حياتي واحدة زي الفل بس مش هاتكلم عنها إلا لما اطمن عليك. وطوال الفترة الباقية حتى موعدي مع الطبيب، ظل يسألني عن تفاصيل متاعبي ومتى بدأت وكيف لم أتصل به بمجرد حدوثها، وكان في كل لحظة يلمس كتفي أو ظهري بحميمية الأم تجاه طفلها الوحيد، ويطمأنني بأنها حالة نفسية بسيطة وتعدي، لكن للأسف كل محاولاته في تطميني زادتني خوفًا ورعبًا حتى كدت أتخلى عن فكرة الذهاب إلى الطبيب، وأجلس بالبيت منتظرًا نهايتي، كما تفعل الأفيال عند إحساسها بقرب الرحيل.

تخلصت من إلحاح أمي بالذهاب معي إلى الطبيب متحججًا بأن حنفي سيصطحبني، لكني لم أستطع التخلص من رخاوة حنفي ولزوجة

اهتمامه المفرط بي، طوال الطريق إلى العيادة ونحن في مصعد المبنى، وفي بهو الانتظار، وكاد هذا الاهتمام يدفعني إلى زجره أو توبيخه، خاصة أن التربيت على جسدي أو الإمساك بيدي أو أي نوع من الملامسة الجسدية من أي رجل مهما كان حميم الصلة كان يجعلني أكاد أجن، الذي صبرني على حنفي أنه لم يسبق له فعل ذلك، دفعت يده وحركت الكرسي الحديدي قليلاً بعيدًا عنه، ظن أن المرض اشتد بي فاقترب أكثر، حذرته بعينيّ الغاضبتين، ويبدو أنه فهم أخيرًا، لأنه فرد ذراعيه على اتساعهما كأنه يعلن أنه لن يمسني، ثم اقترب برأسه مني وسألني هل هذا الطبيب جيد مهنيًا؟ أشرت بزهو إلى نماذج شهاداته وزمالاته وقصائد الشعر الركيكة من مرضى شفوا على يديه المعلقة على جدران عيادته، سكت محرجًا وعندما نادت الممرضة اسمي أسرع بمسك يدي لكني نظرت له بغضب وقلت بصوت عالٍ أقلق المنتظرين كلهم: أنا مش عاجز يا حنفي! لم أحس به بعدها إلا وهو في ظلي كحدبة الظهر في غرفة الطبيب، حكيت للطبيب كل ما حدث لي مؤخرًا وهو ينصت لي باهتمام، ثم سألني عدة أسئلة روتينية وهو يفحص حنجرتي، وأنا أسترسل في الحديث عن متاعبي في البلع وإحساسي بالاختناق الذي أصبح يكاد يلازمني، عاد إلى مكتبه وفى أثناء كتابته للروشتة سألني: الخنقة اللي بتحس بها دي ساعات بتقومك من النوم؟ أعدت التذكر ثم قلت بحزم: لا. ناولني الروشتة وهو يقول بابتسامة: انت ماعندكش حاجة، دي مجرد اضطرابات نفسية بتحصل كتير في حالة فقد أي عزيز.. من الواضح أن والدك الله يرحمه

كان له تأثير كبير على حياتك.. أنا كتبتلك شوية مهدئات وتجيلي بعد أسبوع عشان نطمن خالص. سألته باهتمام: يعني بعد ما آخد الدوا ده حتبطل فروة رأسي ترتعش.. وهأعرف أبلع؟ ضحك الطبيب وهو يجيب: خد الدوا الأول وهتبقى تمام بس إوعى تدمنه.

يكاد يصيبني بالجنون هذا الحنفي، ارتحت لكلام الطبيب واطمأننت إلى خبرته، وفرحت بالخلاص من هذه العيادة وهؤلاء المرضى، خصوصًا وأنا حديث العهد بزيارة الأطباء، وأفاجأ بحنفي واقفًا أمام ممرضة الاستقبال يتحدث معها بصوت هامس، يموت الزمار ويده تلعب، يبدو أنها حلت أمام عينيه وقرر أن يأخذ منها موعدًا، ناديت عليه بغلظة وأنا في طريقي للمغادرة، لكنه جذب ساعدي من أمام باب الخروج وعاد بي إلى الصالة، حيث أجلسني بجواره وأنا أحاول الفلفصة منه كطفل صغير، واستكمالاً لسلسلة التعذيب باللمسات التي تعذبني، والإمساك بيدي وسحبي وراءه كالخروف، اقترب أيضًا بفمه من حلمة أذني وقال: أنا اطمنت للدكتور ده وحجزت عشان عايزه يكشف عليا. سألته ساخرًا: من المشي وانت نائم برضه؟ أجابني بصوت هامس: لا أصل أنا أغمى عليا من يومين وأنا في الشارع. ظهر الاهتمام على وجهي فربت على فخذي قائلاً: ربنا ستر كنت بشتري سجاير وواحد من الواقفين جنبي سندني عشان ماقعش على الأرض وقعدني على كرسي لحد ما فقت. قلت له بلهفة: وازاي تسكت على نفسك؟ وازاي ماتقوليش؟ رد بابتسامة: الموضوع مش مستاهل، مجرد ثواني، لكن بما إننا في عيادة دكتور قلت أكشف بالمرة.

ويبدو أنه كان قد منح ممرضة الاستقبال مبلغًا مجزيًا لأنها بعد فترة قليلة نادت على اسمه ليدخل، وصحبته أنا في الدخول هذه المرة.

أبدى الطبيب دهشة لدخولنا مرة أخرى ثم كشف باهتمام على حنفي بعد أن استمع لقصة إغماءته، سأله إن كانت الإغماءة قد تكررت، نفى حنفي، ظل الطبيب يتحسس عضلات حنفي ويدق بأصابعه على صدره وهو يقول "ما شاء الله" كمدرب الملاكمة المحترف عند اختباره للملاكمين الجدد.

ثم سأله: إنت خلصت الخدمة العسكرية؟ أجابه حنفي بدهشة: لا خدت إعفاء لأني غير لائق طبيًا عشان عندي "فلات فوت". قال الطبيب بابتسامة وهو يدوس زر استدعاء الممرضة: أنا لو منهم ماكنتش إديتك إعفاء، إنت في كامل لياقتك، كنت بعتك على فرقة الصاعقة أو القوات الخاصة.. بصراحة أنا مش عارف انت دخلتلي ليه؟ تحير حنفي ولم يرد وبدا سعيدًا، وسألت أنا الطبيب: أمال إيه حكاية الإغماءة اللي حصلتله يا دكتور؟ نظر تجاهي وابتسم وهو يقول: زي حكايتك مع الهوا والفراغ اللي بتحس بيه تحت رجليك.. يمكن ضغوط! الظاهر الأستاذ كان بيجهد نفسه في التفكير في الفترة الأخيرة. ثم همس الطبيب لممرضة الاستقبال التي استدعاها بالزر، فخرجت وعادت بنقود الكشف إلى حنفي، حاول حنفي الاعتراض لكن الطبيب أصر على ألا يأخذ نقودًا من حنفي، وطلب وهو يبتسم من حنفي أن يشترك بأحد النوادي الرياضية لزيادة لياقته حتى يتمكن من تدريب

إحدى الفرق الرياضية. خرج حنفي سعيدًا من عيادة الطبيب، بينما أسخر أنا من عرضه الرياضي على حنفي وتصاحبني الدهشة من سلوكه واستخفافه بشكوانا، وعزمت في سري على اللجوء إلى طبيب آخر لو لم تفدني المهدئات.

لكني لم أغير هذا الطبيب بل اتجهت إليه وأنا كلي غضب بعد خمسة أيام من هذا اللقاء، لم أنتظر دوري واقتحمت الغرفة عليه ووجدته بمفرده لحسن الحظ، لم يبد اندهاشًا من اقتحامي لغرفته، واستمر في جلسته ينظر إليّ وكأنه كان في انتظاري، كدت أهم بالإمساك بخناقه لكنه أشار لي بهدوء تجاه المقعد الذي أمامه، وقال لي ببساطة: صاحبك مات مش كده! اندهشت جدًا من معرفته ذلك، وهربت مني الحماسة وكل خططي بتجريسه أمام مرضاه أو تدميره، وسألته بصوت خفيض: كيف عرفت؟

أجابني بأسى بأنه من نظرة متفحصة لقرنيتي عين حنفي، أدرك بأن هناك ورمًا بالمخ في مراحله الأخيرة، وأن الأمر لا يحتاج علاجًا بل معجزات، لذا عجز عن أن يقول له قولاً يكدره، ورغب فقط في طمأنته في ساعاته الأخيرة، خرجت من تلك العيادة ناسيًا أمراضي وأوهامي.. وكنت قد قدمت العزاء لشقيقي حنفي عند المقابر، بعد أن حضرا على عجل لدفنه، وفي صباح اليوم التالي لزيارتي للطبيب قررت الذهاب إلى منزل حنفي لتقديم العزاء إلى والدته، ولم أجد أحدًا هناك وأخبرني أحد الجيران بأنها سافرت مع شقيقي حنفي إلى الخليج،

ولفترات كثيرة في حياتي كنت أمر على المقبرة التي دُفن فيها حنفي لعلي أجد فتاة تبكيه أو تترك خلفها وردة محبة له، ولم أجد شيئًا، حتى في المرات التي كنت أتعمد فيها المرور على الدكة الحجرية التي كان يفضل حنفي الجلوس عليها وهو يتأمل النيل أو الكورنيش، لم أجد مطلقًا فتاةً تجلس وحيدة أُحس أنها في انتظار حنفي أو في لهفة لسماع أية أخبار عنه بعد أن اختفى من حياتها فجأة، وظللت لفترة طويلة جدًا أتمنى لو كان قد أخبرني باسمها أو وصفها لي وصفًا يسهل عليّ الاهتداء إليها، لأخبرها فقط كم كنت أحب حنفي وكم أتمنى أن يغفر لي غِلظتي معه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

تصدير ٥

١- ثلاثة أشكال لأبي ٧

٢- أحيانًا تغادرنا الدهشة ٢٣

٣- لم يحدث مطلقًا ٣١

٤- المتحوّل ٣٩

٥- الهابطون من السماء ٤٥

٦- لا أحد قادر على قهرها ٥٥

٧- البهجة تحزم حقائبها ٦٩

٨- صابرين ٨٧

٩- الزيارة ٩٧

١٠- آخر ليالي الصيفية ١٠٣

١١- لم تترك خلفه ورودًا ١١٧

obeikandl.com

صدر للكاتب

١ . الركض وراء الضوء.	مجموعة قصص ١٩٨١
٢ . فئران السفينة.	رواية ١٩٩١
٣. حالة رومانسية.	مجموعة قصص ١٩٩٢
٤. راكبة المقعد الخلفى.	مجموعة قصص ٢٠٠١
٥ . تغريدة البجعة.	رواية ٢٠٠٧
٦ . سرى الصغير.	مجموعة قصص ٢٠٠٨
٧- ليكن في علم الجميع سأظل هكذا.	قصص ٢٠٠٩
٨- مقتنيات وسط البلد.	كتاب عن الشخصيات والأماكن ٢٠١٠
٩- أحوال العباد.	كتابة خارج التصنيف ٢٠١٣

<u>الكتابة للأطفال</u>

١ . فى مجلات ماجد وبلبل وقطر الندى وكتب الهلال للأولاد والبنات

٢ . روايات أطفال " صديقى فرتكوش "

٣ . مسرحية " سارق الحضارات " للأطفال

٤ . رواية أطفال "كوكب النفايات

obeikandl.com

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

obeikandl.com